

كلود عبيد

نقيبة الفنانين التشكيليين في لبنان



(دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، ودلالتها)



مراجعة وتقديم

د. محمد حمود



طريق المعرفة

كلود عبيد

نقيبة الفنانين التشكيليين في لبنان

الألوان

(دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، ودلالتها)

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد حمود



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1434 هـ ــ 2013 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ــ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

www.editionmajd.com

ISBN 978-614-417-036-6

إهداء

إلى حفيدي

سامي مروان عبيد

الذي لوَّن حياتي بلون فرح لم أعرفه من قبل.....

كلود



مقدّمة

جاء في لسان العرب: اللون: هيئة كالسواد والحمرة، ولونته فتلون، ولون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره، والألوان: الضروب، واللون: النوع، وفلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد. هذا ويقال فلان متلون كالحرباء (من الزواحف التي تأخذ لون المكان أو النبات الذي تكون فيه أو تتسلقه)، للرجل الذي يلبس لكل حالة لبوسها!

ومما لا شك فيه أن اللون يحتل في حياتنا منزلة أكبر بكثير مما نتصور، فهو يلاحقنا في الملبس والمسكن، والأدب والفن، في حياتنا المادية والمعنوية، في الاجتماع وعلم النفس، في السياسة والعقائد والأديان... أكاد أقول في كل شيء.... من هنا أهمية هذا الكتاب، الذي حاولنا فيه أن نقدم دراسة موجزة – وإن شاملة – عن الألوان، ماهيتها، مصادرها، فوائدها، دلالاتها ورمزيتها، متوقفين

بشيء من التفصيل عند أبرزها، محاولين قدر الإمكان تغطية أهم هذه الدلالات في مختلف الأزمنة والأمكنة والحضارات والعقائد....

وكان من الطبيعي أن نجد أحياناً بعض التعارض في دلالة اللون الواحد ورمزيته، ما بين منطقة وأخرى، أو بين حضارة وأخرى، أو بين زمن وزمن آخر مختلف، أو حتى داخل الحضارة الواحدة، والمنطقة الواحدة، والمرحلة الزمنية الواحدة، وما ذلك إلا لأن هذه هي طبيعة البشر، وطبيعة الطبيعة التي يعيشون فيها.... وطبيعة نظرتهم إلى هذه الطبيعة.

وكلنا أمل أن يجد القارئ في هذا الكتاب متعة وفائدة، لم نوفر جهداً في الحرص على تقديمهما، رغم العديد من الصعوبات التي اعترضت سبيلنا، لاسيما في محاولة تأمين تسلسل السياق، والحرص على وحدة الموضوع، والحؤول دون الوقوع في عملية تكرار اقتضتها أحيانا طبيعة المقارنات بين الألوان.

رجاؤنا أن نكون قد وفّقنا إلى ذلك، خاصة وأن موضوع هذه الدراسة، لم يسبق أن ظهر مجموعاً في كتاب – بحسب علمنا – مثل هذا الكتاب، فعسى أن يحظى من القارئ العربي بالاهتمام الذي يستحق.

د. محمد حمود

الفصل الأول

الألوان (نظرة عامة)

اللون: الدور والوظيفة

لا يخفى على أحد الدور الذي يمثله اللون في حياة الإنسان، فالألوان من أهم الظواهر الطبيعية التي تسترعي انتباه الإنسان، ونتيجة لذلك اكتسبت مع الأيام، وفي مختلف الحضارات، دلالات ثقافية، وفنية، ودينية، ونفسية، واجتماعية، ورمزية، وأسطورية، وتوطدت علاقتها بالعلوم الطبيعية وعلم النفس، وشكلت المادة الأساس للعديد من الفنون، والفن التشكيلي على وجه الخصوص.

هذا وقد أثبتت الدراسات الحديثة، أن للألوان تأثيراً على خلايا الإنسان، إذ لكل لون موجة معينة، وكل موجة لها تأثير على خلايا الإنسان، وجهازه العصبي، وحالته النفسية. كما أن اختيار الألوان، الانجذاب إليها أو النفور منها، يعود إلى أسباب متنوعة فيزيولوجية نفسية، اجتماعية، رمزية، ذوقية، ودينية، كما لا ينبغي إغفال دور البيئة الجغرافية في مثل هذه العملية.

وقد احتلت الألوان منزلة مميزة منذ القدم، فكانت الأساس لكل الأعمال الفنية التي تصور حياة الإنسان في مختلف ميادينها، عبر بواسطتها عن انفعالاته وقيمه، فأكسبها دلالات معينة، وجعلها رموزاً متنوعة تنوع آلامه وآماله: الحياة والموت، الأمل والخيبة، الحزن والفرح، الهزيمة والنصر، النور والظلام، الرحمة والقسوة، الرضا والغضب....

هذا، وقد استخدمت الألوان منذ عصور ما قبل التاريخ، استخدمها المصري – على سبيل المثال- لرسم ما يقوم به من عمل يومي، كما استخدمها لتسجيل نصوصه الدينية. وهكذا – ومنذ البدايات – كان لها بعدان، أحدهما ديني، والآخر دنيوي، إضافة إلى بعدها الجمالي الملازم.

واليوم، لا تزال الألوان تحتفظ بمنزلتها المميزة – هذا إذا لم تكن هذه المنزلة قد تضاعفت عشرات المرات بفعل التطورات

التقنية، وتقدم الفن المرئي والصورة – فالصورة التي تعتمد اللون أساساً قد غزت العديد من المجالات.

وفي غالبية البلدان المتقدمة، هناك مؤسسات تشرف على تعليم وتدريس طاقة الألوان، وهنا نذكر على سبيل المثال، الفرق بين نظرة علماء الطاقة للون الأحمر ونظرة علماء النفس لهذا اللون، فعلماء النفس يرون فيه لون الحب، أما علماء الطاقة فيرونه رمزاً للانتماء (السجادة الحمراء التي تفرش لاستقبال كبار الضيوف أثناء زيارتهم لبلد آخر، كي يشعروا أنهم في بلدهم!).

والكل يعرف مدى الجهود التي تبذل لاكتشاف إمكانيات الألوان وأسرارها التي طالما بهرت الإنسان، والعمل على وضع نظم رقمية لها، من أجل الاستفادة منها في إثراء المجالات العلمية، والصناعية والمعيشية، والاجتماعية، والروحية، والصحية.

كذلك تعتبر أسماء الألوان من أفضل الأمثلة التي يستخدمها علماء اللغويات الانثروبولوجية للتدليل على التأثير الاجتماعي الحضاري في التصرف اللغوي عند الإنسان.

ولارتباط الألوان بظواهر الكون، نجد وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا" تعلن بأنها ستطلق قريباً، أسطولاً من الأقمار الصناعية الفضائية، لمعرفة مصدر الألوان في الفضاء، ومن أجل إيجاد تفسير

للسر المتعلق بكيفية انفجار الشفق القطبي الذي يميل لونه إلى الخضرة فجأة، ثم يلي ذلك انبعاث ألوان عدة ذات وميض لافت.

وأخيراً، لا بد لنا أن نشير في هذا السياق إلى أنه نظراً لأهمية اللون في الطباعة ووسائل العرض، تم وضع نظم عدة للون في العالم الرقمي، نكتفي بالإشارة إليها، يقوم بعضها على فكرة حبس الضوء، ويقوم بعضها الآخر على فكرة إطلاق الضوء، أما ما تبقى من تلك الأنظمة فيعتمد التأثير على القيمة اللونية الواحدة بثلاثة تأثيرات هي: التدرج اللوني والإشباع، والإضاءة، ويعتمد هذا النظام الألوان الرئيسية، ويقوم بالتأثير على القيم اللونية، فعلى سبيل المثال، عند تشديد الإضاءة على اللون الأسود يصبح رمادياً.

اللون: نظرة علمية

ترى الفيزياء أن اللون عبارة عن موجات ضوئية اهتزازية تدركها العين، وهذه الموجات قد تقصر أو تطول، وعليه فإن اللون هو أكثر من مجرد زخرفة أو زينة للعين، إنه النور وقد تجزأ إلى موجات متباينة الطول والاهتزاز.

والألوان هي موجة أشعة الضوء، وكلما طالت الموجة اقترب اللون من الأحمر، وكلما قصرت الموجة، اقترب اللون من الأزرق

إلى البنفسجي، وصولاً إلى ما فوق البنفسجي من جهة، وإلى ما تحت الأحمر من الجهة الأخرى.

هذا ولا تزال الطريقة التي تستطيع فيها العين التقاط هذه الموجات الضوئية المرتبطة باللون موضع بحث ودراسة. لذلك قد لا نعجب إذا عرفنا وجود نظريات عدة حول هذا الموضوع.

أكثر هذه النظريات رواجاً هي التي وضعها توماس يونغ وحورها هيلميو لتز (نظرية يونغ هيلمهو لتز)، ومفادها أن في شبكة العين ثلاثة أنواع من أعصاب الاستلام تتمتع بحساسيات متنوعة تغطي كافة تنوعات الطيف المرئي، ولكل نوع من الألوان الأساسية، نوع خاص من أعصاب التلقي.

ويرى فرنسوا رود أن الألوان الأساسية هي: الأحمر والأخضر والبنفسجي، فيما يرى العالم الانكليزي ماكسويل أن الألوان الأساسية التي يحدث عنها الضوء الأبيض هي: الأحمر القرمزي، الأخضر الزمردي، والأزرق البنفسجي....

من المفيد هنا التوقف عند ما قام به اسحق نيوتن (1642-1727) الذي يرى أن أشعة الضوء بالمعنى الدقيق للكلمة ليست ملونة، إذ ليس في الأشعة سوى طاقة محددة، وقدرة على إثارة الشعور بهذا اللون أو ذاك.

أخذ نيوتن منشوراً زجاجياً شفافاً، وسلّط عليه حزمة من أشعة الشمس، فخرجت هذه الحزمة مفككة من الجهة الثانية على هيئة أشعة ملونة بألوان سبعة هي ألوان قوس قزح: البنفسجي، النيلي، الأزرق، الأخضر، الأصفر، البرتقالي، الأحمر، ويصعب على الإنسان ملاحظة أين ينتهي اللون الواحد وأين يبدأ الثاني، بسبب تداخل هذه الألوان، وتشرُّب بعضها من بعضها الآخر.

قام نيوتن بتمرير هذه الأضواء الملونة في مناشير من زجاج محاولاً تفكيكها إلى ما هو أبسط، فلم يحصل على شيء، فاعتبر أنها عناصر الضوء.

عاد نيوتن ومرّر هذه الأضواء في المنشور بطريقة معكوسة فإذا بها تتحد، وتعيد إنتاج الضوء الأبيض الذي تولدت منه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن مزج الأضواء الملونة يختلف عن مزج الصبغات الملونة، فإذا مزجنا ألوان الطيف، نحصل على الضوء الأبيض، أما إذا مزجنا الصبغات (الأحمر، الأزرق) (الأخضر، الأصفر) فإننا نحصل على لون رمادي داكن، ذلك لأن الصبغات اللونية، ليست صافية كالضوء الملون.

والواقع أن الإدراك الحسي للون ناجم عن ظواهر ثلاث:

ظاهرة فيزيائية، وظاهرة فيزيولوجية، وظاهرة نفسية، فاللون هو ما نراه عندما تقوم الملونات بتعديل الضوء فيزيائياً بحيث تراه العين البشرية (عملية الاستجابة) ويترجم في الدماغ (عملية الإدراك)، التي يدرسها علم النفس. واللون هو أثر فيزيولوجي ينتج في شبكية العين، حيث تقوم الخلايا المخروطية بتحليل اللون، سواء أكان هذا اللون ناتجاً عن المادة الصباغية الملونة أو عن الضوء الملون.

وغني عن القول إن الإدراك اللوني يتأثر بمفهوم تاريخي طويل المدى بحسب طبيعة المشاهد وثقافته، كما يتأثر بمفهوم قصير المدى، وهو الألوان المجاورة. (في لوحة ألوان تتكون من الأحمر والأصفر والأسود والأبيض، فإن الخليط من الأسود والأصفر سيبدو كدرجات مختلفة للأخضر، كما أن الخليط من الأحمر والأسود سيظهر كدرجات للأرجواني، بينما الرمادي سيظهر أكثر ميلاً إلى اللون الأزرق). هذا وقد لاحظ الرسام الهولندي المشهور فان غوغ، أن العين عندما تفقد تركيزها بعد النظر إلى لون لفترة من الوقت، يلازمها إحساس باللون المعاكس لذلك اللون في منظومة الألوان لبعض الوقت.

ومن غير المناسب أن ننهي هذا الجانب دون أن نتطرق إلى ما يسمى "عمى الألوان"، وهي حالة تتمثل بعدم القدرة على التمييز بين بعض الألوان أو كلها، تظهر عند بعض الأشخاص. فالمصاب

بعمى الألوان قد يتمكن من تمييز لون أو لونين أو ثلاثة من الألوان الأساسية وهي الأزرق والأحمر والأصفر.... والمصابون بعمى الألوان لا يدركون هذه الحقيقة، وليس لهذه الحالة علاج. وقد ترجع إلى خلل في العين، أو العصب البصري، أو الدماغ، أو بسبب التعرض لبعض المواد الكيماوية، ولكنها وراثية في معظم الأحيان.

وعمى الألوان شائع بين الذكور أكثر من الإناث. وهو لا يؤثر في قوة العين أو في مدى رؤيتها. لكنه قد يشكل خطراً لكل من تدفعه طبيعة عمله إلى التميز بين الأخضر والأحمر على سبيل المثال.

هذا وقد قام العالم الانكليزي الكيميائي جون دالتون بنشر موضوع عن عمى الألوان، بعدما اكتشف أنه يعاني منه، ولهذا سميت هذه الحالة بالدالتونية، هذا مع الإشارة إلى أن هذه التسمية تطلق اليوم على حالة واحدة هي عمى الأخضر والأحمر فقط.

اللون: التسمية

أدرك العرب الاختلافات في اللون الواحد، فذكر الثعالبي، والبيروني، وابن سيده، وابن منظور، وغيرهم كلمات يعبر عنها عن "لون" خاص من الألوان. وقد حفلت النصوص العربية بألفاظ خاصة تدل على الألوان، أو تكشف "درجة" لون معين، فقيل عن الأسود إنه حالك....، وعن الأحمر إنه قان.... وقد زعم بعضهم أن الألوان

قليلة عند العرب، وأن العرب لا يعرفون الألوان، وتعدد درجاتها، وكان الدليل الاستشهاد بألوان السجاد التي لم تتجاوز خمسة ألوان، لكن مثل هذا الرأي يعوزه الدليل، وينقضه تعدد الألوان عند العرب، ووفرة الأسماء التي تعبر عن درجات الألوان....

يصف العقّاد اللون بأنه "النور في أصباغه المختلفة"، هذه الأصباغ التي تصل أسماؤها إلى الألوف، وذلك وفق كنهها Teinte، وقيمتها Valeur، وتشبّعها Saturation، ونقاوتها Clarté، وبريقها L'eclat، وكثافتها L'intensité.

أما فيما يتعلق بأسماء الألوان، فهناك الأسماء الأساسية وهي الأكثر شيوعاً وتداولاً كالأحمر والأبيض والأسود والأصفر والأخضر والأزرق....

وهناك الفرعية المستعارة من أسماء الزهور والفاكهة والنبات والمعارف والفلزات من مثل البنفسجي، والوردي والبرتقالي والياقوتي، والكوبالتي، والنيلي، والقمحي، والمخملي....

وحديثاً أصبحت الألوان تحدّد بالأرقام فإذا ذكرنا رقماً معيناً فهذا يعني الإشارة إلى لون معين.

اللون: التصنيف

تعددت عمليات تصنيف الألوان، وطريقة النظر إليها وتقييمها، بتعدد الثقافات والحضارات، وبتنوع مناهج الباحثين، فهناك من نراه يتحدث عن الغوامق (الأسود، والألوان الغامقة إجمالاً، والأزرق) والفواتح (الأبيض، والألوان الفاتحة إجمالاً، والألوان الدافئة مثل الأحمر).

فيما يرى الفيزيولوجي الألماني ايوالد هيرينغ Ewald Hering (1834-1918) صاحب نظرية النظام الطبيعي للألوان، بأن الألوان تقسم إلى قسمين: ألوان أساسية وهي أربعة: أصفر، أحمر، أزرق وأخضر، وألوان حيادية: الأبيض والرمادي والأسود.

أما العالمان بريتيت برلين وبول كيه (Breut Berlin, Paul Kay) فأكدا في بحثهما المشترك الذي صدر في العام 1969 عن جامعة كاليفورنيا بأن هناك أحد عشر إسماً أساسياً للألوان وهي: أبيض، أسود، أحمر، أخضر، أصفر، أزرق، بني، أفلاطوني، بمبي، برتقالي، رصاصي، وتوجد هذه الأسماء في اللغات بمقدار التطور الحضاري والتقني للمجتمعات، فكلما تقدم المجتمع، زاد عدد أسماء الألوان الأساسية في لغته، كما أن هذه الأسماء، توجد في اللغات بترتيب معين كالتالي:

1- في جميع لغات العالم: الأبيض والأسود

2- في اللغة ثلاثة أسماء: الثالث هو الأحمر

3- في اللغة أربعة: الرابع هو الأخضر أو الأصفر (أحدهما فقط)

4- في اللغة خمسة أسماء: (الأخضر والأصفر)

5- في اللغة ستة أسماء: الأزرق

6- في اللغة سبعة أسماء: البني

7- في اللغة ثمانية أسماء أو أكثر: (الأفلاطوني والبمبي والبرتقالي والرصاصي أو لبعض منها).

ويرى هذان الباحثان أن كل لغة من لغات العالم تنتمي إلى إحدى المراحل السبع السابقة، كما أن اللغة التي بلغت مرحلة معينة، لا بد أن تكون بالضرورة قد مرت بالمراحل السابقة تاريخياً وبالترتيب نفسه.

ومما لا شك فيه أن التصنيف القائم على التمييز بين ألوان أساسية وألوان فرعية هو الأكثر كلاسيكية، إلا أن الدراسات التي قام بها توماس يونغ وهيرمان بينت أنه بالإضافة إلى اللونين، الأبيض الذي يحتوي على جميع الألوان ويوحدها، والأسود الذي يمتص جميع الألوان، بينت أن هناك ألواناً مختلطة، وألواناً غير مختلطة.

فهناك الألوان الأساسية والأولية، والتي هي أصل الألوان الصافية ولا يمكن استخراجها من أصباغ أخرى وهي الأصفر والأحمر والأزرق ومن مزج هذه الألوان الأساسية نحصل على الألوان المختلطة.

أول هذه الألوان المختلطة هي الألوان الثانوية أو الثنائية، وهي ألوان مركبة يتكون كل منها من مزيج لونين أساسيين: البرتقالي (أصفر+ أحمر) وهو أول الألوان الثانوية، وأقلها امتصاصاً للضوء، وتتوقف درجة تأثيره في الأبصار على مقدار النور الساقط عليه، ومسافة بعده عن النظر، ونلاحظ أن ضوء الشمس يزيد توهج مظهر البرتقالي، كما يزيد من توهج كل الألوان التي يدخل في تركيبها هذا اللون.

وثاني هذه الألوان هو الأخضر (أصفر + أزرق) وهو يقع في الوسط ما بين الأسود والأبيض من حيث الامتصاص والانعكاس، وثالثها البنفسجي (أحمر+ أزرق)، وهو أقرب الألوان ظلاً من الأسود، لأنه يعكس قدرا من النور.

ثاني الألوان المختلطة هي الألوان الثلاثية، وتكون بمزج أي لون ثانوي مع اللون الأساسي الذي يجاوره، أو عن طريق مزج لونين ثانويين.

وأخيراً هناك الألوان المتوافقة، والواقع أن الترتيب الطبيعي لألوان الطيف هو خير مثال على التوافق، فلو اخترنا لونين متجاورين من دائرة الألوان، لوجدنا أنهما متقاربان، فيهما عنصر مشترك وهذا هو معنى التوافق.

الألوان الحارة والألوان الباردة

ميز علماء النفس بين نوعين من الألوان الموجودة في الدائرة اللونية هما الألوان الحارة والألوان الباردة يتوسطهما اللونان الأخضر المصفر والبنفسجي المحمر. ذلك أن هذين اللونين عنصران مشتركان بين النوعين لاشتقاق كل منهما من لونين أوليين "ساخن وبارد"، فإذا تعادلا من حيث التركيب فهما باردان، أما إذا كانت الغلبة للون الدافئ فهما ساخنان.

ويطلق على الألوان الحارة أيضاً اسم الألوان الدافئة أو الساخنة (الأحمر، الأصفر، البرتقالي)، لأنها تميل إلى الضوء وألوان النار مصدر الحرارة، ويكون ترتيب الألوان الحارة في الدائرة اللونية كما يلي: البنفسجي المحمر، الأحمر، البرتقالي المحمر، البرتقالي المصفر، الأصفر، الأصفر المخضر، وهذه الألوان الحارة زاهية وصارخة، وتعبر عن النور والسعادة والفرح.

أما الألوان الباردة (الأزرق والأخضر وما قاربهما) فإنها تميل إلى القتامة وهي داكنة إجمالاً، وسميت بالباردة نظراً لارتباطها بالفضاء القاتم، وعمق مياه البحر، وانتشار الليل (غياب الضوء)، وهي مركبة على النحو التالي: الأخضر المعتدل، الأخضر المزرق، الأزرق، البنفسجي المزرق، البنفسجي المعتدل.

ولهذين النوعين خصائص عامة نتوقف عند أبرزها، فالألوان الحارة تقدم أشكالها إلى الأمام، وتدفع الألوان الحارة أشكالها إلى الوراء، وكلا النوعين يشعرنا بالبعد الثالث الإيهامي رغم تواجدهما على مسطح ذي بعدين.

ولبعض هذه الألوان خصوصية معينة، فاللون الأحمر يزيد تقدماً وبروزاً عندما يكون لون مؤخرة التكوين لوناً مكملاً وهو الأخضر. واللون الأصفر يزيد تقدماً عندما يكون مؤخرة التكوين لوناً مكملاً وهو البنفسجي.

وتظهر الألوان الدافئة أكبر مساحة من مساحتها الحقيقية، كما أن الأشكال المجسمة الملونة بالألوان الباردة والفاتحة، تبدو أخف ثقلاً من تلك الملونة بالألوان الدافئة القاتمة.

ولاحظ علماء النفس أن هناك فرقاً بين الألوان الحارة والألوان الباردة، تساعد الأولى على التطور التدريجي للتكيف والنشاط، وتزيد

من التيقظ والتنبه والفاعلية، فيما تدفع الثانية نحو الاتجاه المعاكس، إذ لها فاعلية المسكن والمهدئ. وقد تمت الإفادة من هذه المعطيات في ميادين تصميم المنازل والمكاتب والمحترفات....

كما تؤخذ الأنساق اللونية بالحسبان، فاللون البراق اللماع، الفاتح الساطع يولد أثراً إيجابياً قد يبلغ حد الإثارة والتحريض، واللون غير اللامع، الهامد الهادئ، يكون تأثيره أكثر ارتباطاً بالباطن والداخل وهو أكثر ميلاً إلى السلبية والتهدئة (من هنا العلاج بالألوان).

وقد أظهرت دراسة كندية، أن اللون الأحمر يثير الانتباه خصوصا في المهام المرتبطة بالذاكرة، في حين أن اللون الأزرق يشجع على الإبداع، كما أن اللون الأحمر يحسن الأداء واليقظة لدى انجاز مهام تستدعي الانتباه، وذلك لارتباطه في الذهن بإشارات المرور الضوئية وحالات الطوارئ والخطر.

كما كشفت بعض الدراسات أن الضوء الأزرق يساعد المخ على استيعاب مشاعر الآخرين، وأن هذا الضوء يسهل عملية التواصل العاطفي أكثر من الضوء التقليدي.

ويحسن الأحمر أداء الطلاب بنسبة تصل إلى 31% مقارنة بالأزرق في المهام التي تستدعي انتباهاً خاصاً مثل تصحيح النصوص.

أما اللون الأزرق، فإنه يشجع على الإبداع لأن الناس تربط هذا اللون بالمحيط والمساء والحرية والسلام.

وبحث عالم النفس الانكليزي إدوار بيلو (E. Bullouzh)، في أوائل القرن الماضي، مسألة ما إذا كانت هناك من ألوان تبعث على السرور لدى المتلقي أياً كان، وقدم تصنيفاً لأنماط استجابة المتلقي لجماليات اللون هي التالية: الترابطي (annociative) الفيزيولوجي (Physiological)، والموضوعي (Objective)، ونمط الطبع (Character).

والمقصود بالنمط الترابطي إدراك اللون مصحوباً بفكرة أو صورة لموضوع معين مر في تجربة مضت. وهو على نوعين: مندمج ويكون فيه للترابط نغمة انفعالية قوية خاصة به، تتميز عن نغمة الإحساس باللون ذاته، مما يترتب عليه فقدان اللون لمركزه في الوعي، وهو ما يعني أنه غير مشروع جمالياً، والثاني غير مندمج لا ينفصل فيه الترابط عن إدراك اللون، بل يندمج أو يذوب فيه، وهو ما يجعل نغمة الإحساس به تقوى، يتعهده متلقيه بالحرص، بل يضفي عليه حيوية ودلالة.

النمط الثاني الفيزيولوجي، وهو الحكم على اللون من خلال الأحاسيس الشخصية التي يثيرها كالبرودة والخمول....

أما النمط الموضوعي فيعتمد في استجاباته على تحليل خصائص اللون من حيث عامل نقائه.

ويقوم نمط الطبع على صيغة خارجية تعتمد على الصفات، فالأحمر مثلا صريح ونشيط، والأزرق متحفظ وتأملي....

وقد خلص هذا الباحث في النهاية إلى النتيجة التي يشعر بها كل إنسان في الواقع، وهي القول بأنه "لا يمكن وضع قاعدة قارة بشأن القيمة الجمالية للون بوجه عام".

العلاج بالألوان

أظهر العديد من الدراسات أن الألوان تؤثر في أمزجة البشر (نصح سيجمان مارتن الزوجات بارتداء اللون الأسود في السهرات الخاصة وعند دعوة الزوج لزوجته إلى عشاء، إذ إن هذا اللون يكسبها بريقا وفخامة)، كما تؤثر في حالتهم الصحية والعضوية.

واستخدام الألوان في العلاج، مرتبط باستخدام طاقة الضوء التي ثبت أنها تنبه الغدة النخامية والجسم الصنوبري، مما يؤدي إلى إفراز هرمونات معينة تحدث مجموعة من العمليات الفيزيولوجية، وبالتالي السيطرة المباشرة على تفكير ومزاج وسلوك الإنسان.

هذا وقد عرف العلاج بطاقة الألوان منذ القديم، استخدمه المصريون القدماء، والإغريق، ومن أبرز من استخدمه من بين هؤلاء عالم الرياضيات الشهير فيثاغوراس، كما استخدمت هذه الوسيلة في الصين والهند، واستخدمت الألوان كأسلوب علاج عند العرب والمسلمين، كما أشار إلى ذلك إبن سينا في كتابه "القانون".

وأول من استخدم العلاج الحديث بالألوان فنسن نيلز (Finsen Niels) الدانمركي، وذلك بعدما اكتشف في العام 1877 أن طاقة الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن ضوء الشمس لها تأثير قاتل على الجراثيم، مما دفعه إلى استخدام الضوء كوسيلة علاجية. قام فنسن نيلز بدراسة تأثير الضوء المرئي في علاج الجروح، واستخدم في تجاربه الضوء الأحمر لتثبيط ندب مرض الجدري. وفي العام 1896 أنشئ معهد الضوء، الذي يسمى حالياً "معهد فنسن" في كوبنهاغن، لعلاج مرض السل عن طريق التصوير.

وأثبت العلم الحديث، أن الألوان تزود الجسم بالطاقة، التي تعمل بدورها على تصحيح الاضطرابات الشعورية أو النفسية، بما فيها السلوك السيكوباتي، ففي العام 1932 أثبت باحثان أمريكيان في الأمراض النفسية بطريقة علمية بأن للون الأزرق تأثيراً مهدئاً، فيما يدفع اللون الأحمر إلى النشاط.

كما أجرى فريق من علماء "الكلية الملكية" في لندن دراسة حول تأثير الألوان على جسم الإنسان، أظهرت أن لبعض الألوان قدرة علاجية حقيقية نظراً لارتباطها بغدد معينة في الجسم، وأن هناك مراكز محددة داخل أجسامنا تتأثر بألوان الطيف السبعة المعروفة.

ولا يرى الطب التقليدي مقياساً ثابتاً ومحدداً لعلاقة الألوان بالعلاج، إذ يلاحظ أن تأثير الألوان يختلف بين حالة وأخرى، فعلى سبيل المثال قد يرى البعض في اللون الأبيض لوناً مهدئاً وصريحاً، فيما يراه بعضهم الآخر لوناً ليس له معنى.... لكن هذا لا يمنع أن بعض الألوان لها تأثير شبه مجمع عليه، فمثلاً الأحمر والأسود والبنفسجي ألوان مثيرة، وقد تدفع إلى التوتر، وهي بالتالي شبه محظورة داخل مستشفيات الصحة النفسية، التي تفضل استخدام ألوان تبعث على الهدوء والاسترخاء كالنيلي أو الأخضر الفاتح....

أما علماء الطب البديل، فقد أكدوا أن للألوان علاقة وطيدة بغدد معينة، ومراكز محددة داخل أجسامنا تسمى "تشاكرا" Chakra، والتشاكرات في التراث الهندي هي أماكن تمركز الطاقة في الجسد، وعددها سبع، وهي مراكز متخيلة غير ملموسة، وبالتالي ليست موجودة مادياً، ولكنها تتصل بنظامين في الجسد، الجهاز العصبي وغدد الاندوكرين. وظيفة هذه المراكز تجميع الطاقة، وكل واحد منها يمثل غدة معينة داخل جسم الإنسان، ويتأثر كل منها بلون من ألوان الطيف السبعة، ولا تقتصر على كونها متصلة بغدة أو عنصر معين في الجسم، بل يمتد تأثيرها إلى الجانب الشعوري أو الروحاني. والتشاكرات السبع هي:

1- التشاكرا العليا أو التشاكرا التاجية، وموقعها فوق الرأس، يقولون إنها مجلس الروح، لونها البنفسجي، وهو اللون الذي يقع في أعلى الألوان، تتصل هذه التشاكرا بأعلى الرأس والمخ وكل الجهاز العصبي، تمثل الجانب الروحي في الإنسان. والحجر الموازي للون البنفسجي هو الجمشت.

2- تشاكرا العين الثالثة أو تشاكرا الحاجب، وتسمى مركز الوعي كذلك، تقع بين الحاجبين، لونها النيلي أو الأزرق الداكن، تتصل بالكارونيد بلاكسيس، لها علاقة بالوعي والإدراك والإلهام، هي مكان المصدر الحقيقي لما يوجه أفعالنا. يستخدم ألوان هذه التشاكرا الملهمون والسحرة والمشعوذون والمتنبئون والكهنة والصوفيون، ويؤثر هذان اللونان على المخ والجهاز العصبي.

3- تشاكرا الحنجرة أو مركز القرن، وموقعها في أعلى الحنجرة، وتتصل بالحنجرة والرقبة، واليدين، والذراعين، والغدة الدرقية، ولهذه التشاكرا علاقة بالتعبير والتعامل، كما لها علاقة بالسمع الداخلي للإلهام والقناعة والإبداع، وهي تربط العلاقة بين العالم الروحاني والعالم المادي للفرد ولونها الأزرق، وهو مرتبط بحجر صودالايت، وهو لون العلم والصحة والجسم، يساعد في التعبير عن المشاعر، يدفع إلى الصدق. لون مهدئ، يمنح الاسترخاء والوضوح الذهني، يعبر عن الحق والسلام. تستخدمه الشركات

الكبرى للتعبير عن الولاء والثقة، والنظافة والرعاية، مرتبط بالعلوم والغدة الصعترية، يثير الغدة النخامية التي تنظم النوم، يشفي الآلام والأوجاع، خاصة الصداع، مطهر، مسكن، يخمد الشهية.

4- تشاكرا القلب أو مركز الحب الحي، موقعها الصدر، تتصل بالقلب وبنظام دورة الدم وبالغدة الصعترية، وبالتالي فهي تتحكم بجهاز المناعة، ولها علاقة باللمس وإدراك معاني الحب والعلاقات العاطفية الأسرية والأبوية، ولها علاقة بصعوبة التنفس، ولونها الأخضر الزمردي، والحجر الموازي لهذا اللون هو الزمرد، والأخضر هنا هو لون التوازن والتحكم بالذات والحب، يرتبط بالربيع وبالنمو، وقد فضله العديد من الأنبياء.

يساعد هذا اللون الدورة الدموية، ويعمل على استرخاء العضلات كما يؤثر إيجاباً على الرئتين والقلب والثديين والذراعين، ويساعد على التنفس بشكل طبيعي.

5- تشاكرا السرة أو مركز القوة، لها علاقة مع نظام العضلات والجلد والأمعاء الغليظة والمعدة والكبد والبنكرياس، وكذلك مع العين والوجه، وهي مرتبطة بمفاهيم القوة والتحكم والحرية والنشاط الذهني.... لونها الأصفر وحجر هذا اللون هو الليموني، والأصفر لون التنوير والحكمة والحماسة والتفاؤل والمرح

والوضوح والثقة. يمثل اللون الأصفر في تشاكرا السرة التركيز والذكاء، وينشط الذاكرة، يعطي الوضوح لأفكارنا، ويدعم اتخاذ القرارات، يقوي الجهاز العصبي، يزيل السموم من القنوات الهضمية، يرتبط بالكبد والمعدة والبنكرياس والأمعاء والكليتين.

6- التشاكرا البرتقالية أو تشاكرا الطحال، وتسمى مركز الشعور ولونها برتقالي، يمثله حجر الكارنيليان، وترتبط هذه التشاكرا بالوعي والأكل واحتياجات الجسد. والبرتقالي هنا هو لون السعادة والثقة ومصدر الإمكانات الكامنة، والشجاعة والنجاح والترحيب.

7- التشاكرا الجذرية أو تشاكرا القبيلة، وتقع في أسفل العمود الفقري، أو أسفل الجسم العلوي، لونها الأحمر، والحجر الذي يناسبه هو العقيق الأحمر، غايتها: البقاء، العيش. ترتبط بالغدد الأدرينالية والعمود الفقري والكلية والقدمين والساقين. أحمر تشاكرا الجذرية هو لون الحيوية والنشاط والحب، لون الحماس والقرار، لون الثقة بالنفس والعزيمة والقوة....

وإذا كان للألوان هذا القدر من الأهمية في حياة الإنسان المادية والروحية فمن أين يأتي بها، وهذا ما يقودنا إلى السؤال عن مصدر الألوان.

مصادر الألوان

مما لا شك فيه أن الطبيعة بالمعنى الشامل للكلمة هي أول ما لفت انتباه الإنسان إلى أهمية اللون، لأن الطبيعة بالألوان التي لا حصر لها والتي قدمتها للعين البشرية، دفعت الإنسان إلى البحث عن مصادر تمكنه من الحصول على ألوان تضارع ما تقدمه الطبيعة، وهكذا فقد توجه الإنسان منذ القديم نحو النباتات كالثمار والأزهار وأوراق الشجر والجذور السيقان، يستفيد منها ويستخرج الصبغات والتقليدية، كما استخرج العديد من الأصباغ من الحيوانات والحشرات....

وفي زمن مبكر جداً أضاف الإنسان القديم إلى الألوان التي استخرجها من النباتات والحشرات مركبات معدنية كغيره كالرهج الأصفر، والملاكيت، والازوريت وغيرها... وواقع الحال أن الألوان تطورت باستمرار عبر تطور المعصور، كما أنها كانت على نوعين الصبغات والأحبار Dyes، والمواد الملونة غير العضوية Pigments.

1- الصبغات والأحبار: مواد لم تستخدم في الرسومات والنقوش الجدارية لأنها قابلة للذوبان في الماء وبعض المذيبات الأخرى. كانت تستخرج من نباتات طبيعية، من ثمار الأشجار، من

الزهور البرية وجذوع النبات، من الحشرات والديدان التي تعيش على الأشجار والنباتات.

نذكر على سبيل المثال أن المصدر النباتي للألوان الزرقاء هو نبات الينلج أو النيلة، والنيلة هي أقدم وأهم صبغة زرقاء كانت تستعمل في مصر والهند في الألف الثالث قبل الميلاد.

أما سكان بلاد الرافدين، فقد عرفوا درجات مختلفة من اللون الأصفر ذات مصدر نباتي أولها نبتة الزعفران. وكانت حبات الزانين – إضافة إلى مواد أخرى – مصدراً للون الأسود. أما مصدر اللون الأحمر النباتي فقد كان لحاء أشجار البلوط. وتذكر احد النصوص الأشورية أن عدد أشجار البلوط التي كانت تنمو عليها دودة القز المسماة بالقرمز (التي كان يستخرج منها اللون الأحمر المسمى قرمزي) في حدائق معبد الآلهة عشتار يزيد على الألف شجرة.

وكلنا يعرف أن الفينيقيين استخرجوا الأرجوان من أصداف الموركس، وهو المعروف بأرجوان صُور (المدينة اللبنانية المشهورة) أو الأرجوان الملكي....

ويعتقد أن المصريين القدماء هم من عرف الأحبار وصبغوها، فقد صنعوا الحبر من غراء وصمغ الخضروات المخلوط بالماء، واستخدموه في الكتابة على ورق البردي.

وصنع الصينيون الحبر من زيت الحبوب ولحاء الأشجار، وتميز حبرهم بمقاومته للماء والظروف البيئية المختلفة، وقد تفوقوا في هذه الصناعة منذ أكثر من ألفي سنة، ولا زالوا بحيث يصدرونه إلى جميع بلدان العالم.

أما الرومان فقد استخدموا الأحبار التي تفرزها بعض الحيوانات المائية، كما صنعوا الأحبار المختلفة من الزيت ولحاء الأشجار، وفي العصور الوسطى صنع الرهبان في أوروبا أحباراً من كبريتات الحديد مضافاً إليها مسحوق العلقم.

هذا وقد عرفت الألوان الزيتية أيضاً منذ القدم، فقد استخدمها المصريون القدماء، والأشوريون، والبابليون، واليونان والرومان، وذلك قبل اكتشافها من قبل الأخوين الهولنديين هيوبرت وفان ايك، اللذين كانا أول من اتقنا مزج الألوان بالزيت، وحصلا على مزيج سريع الجفاف وضاء اللون. لكن تجدر الإشارة إلى أن الألوان المستخدمة قديماً، لم تكن مشابهة تماماً للألوان المستخدمة حالياً، وإنما كانت مغايرة لها من حيث التركيب وتعرف بالانكوسيتا: ألوان تمزج بالشمع السائل وهي ساخنة، والتاميرا: ألوان ناعمة جداً تمزج بصفار البيض والصمغ، والفرسكو: يلون بها على الجص الحديث المزج.

المواد الملونة غير العضوية

هي في الغالب مواد معدنية عضوية، وهي عبارة عن جزئيات معدنية طبيعية مختلفة اللون. كانت تنتقى من الصخور الرسوبية، تعالج بوسائط سائلة غير مذيبة لها.

هذا وقد استخدم الفنان القديم كثيراً من الخامات الطبيعية لاستخراج اللون الأصفر مثل معادن اللأوربيمنت، ويتميز هذا الصنف بمقاومته لتأثير الضوء والهواء. إستخدم في مصر ابتداءً من الأسرة الثامنة عشرة، وسمي باسم الأصفر الملكي أو الأصفر الذهبي، وقد وجد كيس منه في مقبرة توت عنخ آمون. وكان الأوربيمنت متوفراً في بلاد آسيا الصغرى والمجر ورومانيا.

كما تعتبر المغرة الصفراء من أشهر الألوان الصخرية الشائعة الاستخدام للحصول على اللون الأصفر، لكنها قد تتحول إلى اللون الأحمر عند رفع حرارتها. وقد استخدمت في مصر منذ ما قبل عصر الأسر، كما شاع استعمالها في القرون الوسطى، وقد أضاف إليها الفنانون أصفر الكروم لإكسابها بريقاً ولمعاناً، وتوجد في الطبيعة في الأحجار الرملية. كما استخرج اللون الأصفر من الجاروسيت.

أما اللون الأحمر فقد استعمل بغزارة في تاريخ البشرية، وهو على كل حال أول لون استخدمه الإنسان في زخارفه، فظهر منذ

العصر الحجري القديم على جدران الكهوف بكثرة وذلك لسهولة استخراجه وصناعته من ثالث أوكسيد الحديد، ولتوفره في كثير من المواد. ومن أهم مصادره أيضاً المغرة الحمراء، التي استخدمها المصري القديم كمادة أساسية في التلوين باللون الأحمر، وهي لا تتأثر بالضوء أو المواد القلوية، ولكنها تذوب في الأحماض المركزة الساخنة، وفي درجات الحرارة العالية. وقد كان الفنانون في القرون الوسطى يحصلون على اللون الأحمر بتسخين المغرة الصفراء بدرجة حرارة مرتفعة.

مصدر آخر من مصادر اللون الأحمر هو السلاقون (أحمر الرصاص). وقد عرف هذا المصدر منذ العصور اليونانية والرومانية، وتجدر الإشارة إلى أن السلاقون كان من أحب مواد التلوين للفنانين في العصرين البيزنطي والفارسي، وشاع في العصور الوسطى. ويتميز السلاقون بلونه القرمزي اللامع، وبقوة تغطيته الكبيرة، كما أنه يتميز بعامل انكساره الضوئي الكبير، وبحبيباته الدقيقة الحجم, ويتحول إلى اللون البني بفعل حامض النيترك.

كما أن السنبار (Cinnabar) هو مصدر من مصادر اللون الأحمر، وقد استعمل للتلوين باللون الأحمر في اليونان القديمة، في القرن السادس ق.م. وهو نادر، غير متوفر بكثرة، ويتميز بالبريق

الماسي واللون الأحمر النقي في حال نقاوته، ولكنه معتم عندما لا يكون نقيا.

هذا عن الأحمر، فماذا عن الأزرق؟ من أقدم الخامات التي استخدمت للتلوين باللون الأزرق هي الأزوريت (Azurite)، وقد استخدم في بلدان الشرق القديم (وحديثاً في أوروبا)، كما استخدم في صور الفرسك الروسي، والأيقونات القبطية. وقد تمكن فنانو القرن السابع من صنعه باستخدام النحاس وحمض الخليك والبيض.

ويقال إن سكان وادي الرافدين هم أول من استخدم اللون الأزرق، بعد مرور آلاف السنين على استعمال الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، وذلك لصعوبة استخراجه (مع وجوده في الطبيعة)، فجميع الرسوم الجدارية المعروفة في العالم، لإنسان مرحلة الصيد، والتي يرجع تاريخ أقدمها إلى حوالى 350000 سنة، وحتى نهاية الألف السادس ق.م، خالية تماماً من الأزرق.

ويعتبر حجر اللازورد، أهم مصدر معدني للحصول على اللون الأزرق، كما يمكن الحصول عليه من كربونات النحاس ذات اللون الأزرق والتي استخدمها سكان وادي الرافدين. وتجمع المصادر على أن المصدر الأساس لأصباغ اللون الأزرق في أوروبا وآسيا وأفريقيا هي مناجم اللازورد والياقوت والأوزريت في أفغانستان وإيران والتيبت وسيبيريا.

هذا وقد استخدم لون أزرق، عرف بالأزرق المصري في مصر القديمة حوالى 2600 ق.م، واستمر استخدامه في العصر اليوناني القديم، وانتشر في بحر ايجة وحوض المتوسط، وكان هذا اللون يصنع من سيليكات النحاس والكالسيوم، وهو على ثلاثة أنواع: أزرق داكن، أزرق فاتح اللون، وأزرق فاتح مخفف.

أما فيما يتعلق باللون الأخضر، فيعتبر الملاكيت من أهم مصادر الحصول على هذا اللون، وهو من خامات النحاس الثانوية الواسعة الانتشار، وقد وجد في العديد من الآثار الفرعونية والقطبية في مصر. وقد استخدم الأخضر الملاكيت على مر العصور في التصوير الأوروبي حتى العام 1800، حيث بدأ تصنيع الألوان الخضراء الأخرى. هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أنه عثر في أحد مقابر الأسرة السادسة على مادة زجاجية خضراء مصنعة.

ومن مصادر اللون الأخضر الاتاكميت الذي استخدم في تلوين الأيقونات الروسية في القرن السادس. وهناك مادة الكريزوكولا والتي هي عبارة عن سيليكات النحاس الطبيعية، وقد وجدت المادة الخضراء المأخوذة منها في بعض مقابر الفراعنة.

مصادر اللون الأبيض هي الأخرى متعددة: الجبس، الكالسيت، الهونتيت والكاولين.

استخدم الجبس كمادة ملونة في الصور المصرية القديمة. واستخدم الأبيض المستخرج من كربونات الكالسيوم. ويعتبر هذا اللون من الألوان القديمة التي حضّرت صناعياً، ولكنه غير ثابت، إذ تحوله العتمة إلى أصفر. كذلك استخدمت مادة الهونتيت (كالسيوم ومنغيزيوم) في تلوين ملابس الآلهة، إذ كان أبيض هذه المادة أكثر نصوعا.

أما الأبيض المستخرج من مادة الكاولين المكونة من سيليكات الألمنيوم والبوتاسيوم (ويسمى بالطين الصيني أو الطين الفرنسي) فكان يستعمل لتغطية أسطح الجدران للرسم عليها.

وماذا عن الأسود؟ المعدن الأساس لهذا اللون هو الكربون، وله صور عدة منها السفاج (بقايا الاحتراق) المكشوط من فوق الأسطح الخارجية لأوعية الطبخ.

وهناك مسميات أخرى للون الأسود ومصادره مثل الأسود النباتي أو الحيواني، وأسود العظام أو العاج. وهناك السفاج الناتج عن عمليات الاحتراق للزيوت والشحوم والرتنجات. ومهما يكن من أمر، فإن معظم الألوان السوداء تحتوي على الكربون كعنصر أساسي، والكربون، بصفة عامة يتأثر بدرجات الحرارة العالية. ولكنه ثابت اللون، لا يتأثر بالضوء أو بالهواء أو بالأحماض.

ويعتبر الرمادي بشكل عام، خليطاً من الأسود والأبيض، وهو في مقابر الأسرة المصرية الخامسة خليط من الجبس وفحم الخشب. كما عثر على لون رمادي يرجع إلى عهد الأسرة الرابعة، وهو عبارة عن خليط من تراب لونه ضارب إلى الصفرة الشاحبة والسفاج.

أما القرنفلي فقد كان على درجة من الشيوع في مصر القديمة وبلاد الإغريق، ومصدره أوكسيد الحديد، وبعض أنواع النبات، كما عرف لدى الرومان، أما البني فمصدره أيضاً أوكسيد طبيعي للحديد، وقد وجد صندوق ملون بالبني يرجع تاريخه إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة.

هذا عن مصادر الألوان، فماذا عن دلالتها، معانيها وما ترمز إليه؟

رمزية الألوان

الرمز ملازم لوجود الإنسان، عرفه الإنسان منذ ظهوره على هذه البسيطة، ونراه حاضراً في حياته بمظاهرها المختلفة العملية والمادية، والعقائدية والروحية، ولكنه يبدو في أروع صوره في نتاجه الفني من أدب وشعر ورسم وتصوير....

وقد عرفت الفنون القديمة جميعها بأنها فنون رمزية، وقد استعملت الألوان، كما استعمل الخط والحركة والإشارة في الرمز الفني التشكيلي، وربما كان اللون من أهم الأشياء التي استعملت كرموز، إذ يمكن للون أن يتحرك على شاكلة تعبير رمزي، أو تكوين جمالي، لمختلف الأغراض الحياتية أو الفنية ذات الرؤية المختلفة، كما يمكن أن يكون واسطة للتعبير عن العاطفة الإنسانية على اختلاف نزعاتها ودوافعها. وقد بقيت رمزية اللون محتفظة بقيمتها التقليدية بالرغم من التطور الكبير الذي عرفته دراسة الألوان خلال السنوات الأخيرة، وبخاصة تحت تأثير كاندنسكي، وهاربن، وهنري بفايفر.

السمة الأولى لرمزية الألوان هي الشمولية، ليس من الناحية الجغرافية فحسب، بل على جميع مستويات الكائن البشري والمعرفة الكونية، والنفسية، والصوفية.

ثمة فرضية شائعة حول عمومية مدلولات اللون بين الثقافات، أو ما يسميه غريماس "البنية اللازمنية"، أو ما أطلق عليه ميشيل ليريس "البنية اللاواعية"، وتظهر هذه الفرضية في المثل المشهور الذي أورده شتراوس حول إشارات المرور والألوان المستخدمة فيها، والتي أعطت، بحسب رأيه، للونين الأحمر والأخضر قيمتها الدلالية بطريقة كيفية. إذ "ربما كان من الممكن القيام باختيار معاكس. بيد أن

الأصداء الشعورية، والنغمات الرمزية المتوافقة للأحمر والأخضر ما كانت لتنعكس على نحو بسيط. ذلك أن الأحمر في النظام الحالي، يذكر بالخطر والعنف والدم، فيما يذكر الأخضر بالأمل والهدوء.... ولكن ما الذي قد يحدث لو كان الأحمر إشارة الطريق السالكة، والأخضر إشارة الممنوع؟ ربما كان الأحمر سيعتبر دليلاً على الحرارة البشرية وقابلية الاتصال، ويعتبر الأخضر دليلاً على البرودة وقلة الحركة، وهكذا لن يحل الأحمر محل الأخضر دون قيد أو شرط، والعكس صحيح. قد يكون اختيار العلامة كيفياً، إلا أنها تحتفظ بقيمة خاصة، وبمضمون مستقل يتحد بالوظيفة الدالة ليعدلها، ولو عكس التقابل بينهما، لاحتل مضمونه الدلالي على نحو محسوس، لأن الأحمر سيبقى أحمر، والأخضر أخضر، ليس فقط بصفتهما حافزين حسيين، كل منهما مجهز بقيمة خاصة، بل لأنهما كذلك ركنا علم رموز تقليدي تتعذر معالجته بطريقة حرة تماماً، منذ وجد تاريخياً.

وقد رفض بو زانكيه (Bou Zanquet)هذه الفرضية بقوله: "بالرغم أنه قد يبدو من الصحيح أننا نربط شعورنا باللون الأحمر بصور الدم والنار، أو شعورنا باللون الأزرق بصورة السماء، فإن لدي شكوكاً قوية، فيما إذا كان ينبغي أن ندرس ارتباطهما حقاً بوصفه ارتباطاً أساسياً". وإلى مثل هذا ذهب جورج مونين (George Mounin) عندما كتب يقول: "يبلور قاموس الألوان ويقدم شيئاً أكثر

من تجربة الحاضر، بل إن تجربة الماضي يختلف تصنيفها للألوان باختلاف التفسيرات الفيزيقية والميتافيزيقية والدينية".

وتشير الرمزية اللونية إلى استخدام الألوان بوصفها رمزاً في جميع الثقافات، كما أن علم النفس اللوني يشير إلى تأثير اللون على المشاعر والسلوك البشري تمييزاً لها عن الاستطباب بالضوء، أي استخدام الأشعة فوق البنفسجية.

ومهما يكن من أمر، فإن الرمزية اللونية وعلم النفس اللوني مبنيان ثقافيا على روابط تختلف باختلاف الزمان والمكان والثقافة، وقد يكون للون الواحد رموز مختلفة جدا، وآثار نفسية متنوعة حتّى في نفس المكان، كما أن ردة الفعل على الألوان ليست فطرية، بل هي مكتسبة وتختلف من منطقة إلى أخرى.

فاللون الأبيض على سبيل المثال ذهب الأمر معه من النقيض إلى النقيض، فلمس الديك الأبيض كان محرماً عند بعض الإغريق، فيما كان فأل خير عند الازتيك، وفيما كان الثوب الأبيض رداء الزفاف في أميركا الشمالية، كان يُلبس في الجنازات في أجزاء من اليابان والصين.

وفي بعض الثقافات كان يخصص الأسود للحداد، فيما يخصص للغرض نفسه في ثقافات أخرى.

وكما استعمل اللون الأحمر للإشارة إلى الخطر والتوقف، استعمل أيضا رمزا للحب! كما في أميركا الشمالية....

واستنادا إلى أقدم كتاب في علم الجمال في الهند، يجب أن يكون لون الأشياء محاكاة للطبيعة، فيكون الحب أزرق قاتما، ويكون الضحك أبيض، والشفقة رمادية، والغضب أحمر، والشجاعة والبطولة بلون أبيض ذهبي، والخوف أسود، والدهشة صفراء، والتقزز بني....

وقد اندرج توظيف الدوال اللونية في سيرورة التطهير بمعناه الصوفي في تقاليد العصور الوسطى. وعملت الحروب الصليبية وتأثيرات الألوان الشرقية على تعزيز ما سماه الفنان رودان "الغبطة الصوفية للون" التي رآها تسود فنون القرنين الثاني عشر والثالث عشر حيث كان زجاج النوافذ خلال هذين القرنين الثاني عشر والثالث عشر يفتن الأبصار بمجمل ألوانه الزرقاء العميقة، وبدغدغة ألوانه البنفسجية العذبة، ودفء ألوانه الحمراء القانية... وإذا كانت صبوة اللون هي الملمح السائد في قصائد هذين القرنين، فذلك لأن جميع هذه الألوان تعبر عن الغبطة الصوفية التي كان الفنانون الخشع يأملون في الاستمتاع بها في سماء أحلامهم.

وخلاصة القول إن اللون هو أول لغة نخاطب بها المحيطين بنا، وهو من الأمور الأساسية التي نحتاجها في حياتنا اليومية،

وللألوان أثر واضح في النفس، فكثيراً ما يرتاح الإنسان إلى لون معين دون آخر (أظهرت بعض الدراسات التي جرت في أميركا، أن الأشخاص ذوي التعليم العالي، وأصحاب الدخل العالي، يفضلون الألوان الهادئة ذات الأطياف القريبة بتباين بسيط بينها، بينما يفضل ذوو التعليم البسيط، وأصحاب الدخل المتواضع الألوان الصارخة ذات الأطياف المختلفة والدرجات الشديدة التباين).

وتبقى الرمزية اللونية مجالاً مستمراً للدراسة تعتمد على مجموعة من الأدلة التراثية القصصية، لكن لا تدعمها بيانات من دراسات علمية متينة ومكثفة، مع التأكيد بارتباط الألوان بالحالة الوجدانية، والقيم والجماعات، وهذه الحالات غالباً ما تتنوع بتنوع الثقافات....

هذا وقد أقيمت معادلات بين الألوان وبعض الأمور الأخرى، فالألوان السبعة لقوس قزح، طوبقت مع النوتات الموسيقية السبع، ومع السموات السبع، ومع الكواكب السبعة، ومع أيام الأسبوع السبعة، كما أن العدد السابع يحتل منزلة مميزة في المسيحية، لأنه يشتمل على الثالوث الأب والابن والروح القدس، وعلى العالم المخلوق ذي العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) الذي خلق في سبعة أيام كما جاء في الإنجيل.

ولدى الكثير من هنود أمريكا الشمالية، ارتبط كل قطاع من القطاعات الكونية الستة بلون مقدس: الشمال أصفر، الغرب أزرق، الجنوب أحمر، والشرق أبيض. كما أن السمت الأعلى متعدد الألوان والنظير الأسفل أسود.

كما رمزت الألوان عند بعضهم إلى عناصر الطبيعة، فالأحمر والبرتقالي: النار. الأصفر أو الأبيض: الهواء. الأخضر: الماء. الأسود أو الأسمر: الأرض.

وللمايا أربعة ألوان تمثل هندسة الجهات الأربع، تسيطر على الأرض وتلهم عواطف الإنسان، الأبيض متطابق مع الشمال، مع أول شجرة ومع أول إنسان، مع الأمل والوعد، والأسود هو الغرب، والأحمر هو الشرق، والأصفر هو الجنوب.

وفي المسيحية أخذت الدلالات اللونية قيمها لغايات دينية، فاللون هو جزء من النور المخلوق وغير المخلوق، فالكتابات والمخطوطات وآباء الكنيسة، لم يعرفوا إلا عظمة النور وأبهته وجماله، فالله هو نور من نور، وبياض شعره يشير إلى قدمه وأزليته، "رأسه وشعره أبيضان كالصوف الأبيض كالثلج، وعيناه كلهيب نار".

"وأساسات سور المدينة (أورشليم) مزينة بكل حجر كريم، فالأساس الأول يشب، والثاني ياقوت أزرق، والثالث عقيق يماني

أحمر، والرابع زمرد، والخامس جزع عقيقي، والسادس عقيق أحمر، السابع زبرجد، الثامن زمرد سلقي، التاسع ياقوت أصفر، العاشر عقيق أخضر، الحادي عشر اسامنجوني، والثاني عشر جمشت".

وهذه الأحجار الكريمة بألوانها وخواصها هي رموز لفضائل وخواص كل من الرسل الإثني عشر.

اليشب أخضر اللون على اصفرار، وهو يشير إلى بطرس الرسول (الذي كان أخضر قبل أن يسلم المسيح إلى اليهود، لكن في وقت تسليمه ظهر عليه اصفرار الجبن حتى أنه أنكر المسيح.... ولكنه فيما بعد غسل إنكاره بدموع التوبة....). ويرمز الياقوت الأزرق (لون سماوي) لبولس الذي صعد إلى السماء الثالثة. والثالث ولونه أحمر ناري يرمز إلى اندراوس (التبشير). والرابع زمرد ومن خواصه سطوع لمعانه، ويرمز إلى يوحنا الإنجيلي (مبدد الجهل). ثم الجزع العقيقي الذي مع بياضه يحوي خطوطاً دموية، وهو رمز ليعقوب شقيق يوحنا، فإن هذا بعد أن أنار كثيرين بنور الإنجيل سكب دمه. والسادس هو العقيق الأحمر، وهو يرمز إلى فيليبس الرسول. والسابع الزبرجد (أو حجر الذهب) وهو رمز برتلماوس لأن فضائله كانت تلمع كالذهب. والثامن زمرد سلقي (أو جزع) ولونه كلون البحر، وهو يرمز إلى توما الرسول الذي اجتاز مسافة عظيمة في البحار وصولاً إلى الهند. والتاسع ياقوت أصفر، يخرج منه صمغ

يشفي العيون، وهو رمز متى الإنجيلي الذي بسيرته وشدة إيمانه يبهج عيون أنفسنا. والعاشر عقيق أخضر يدل على الرسول تداوس الذي وعظ الابجر ملك الرها وأهل مملكته وعلمهم حقائق الدين المسيحي. والحادي عشر اسامنجوني ولونه كلون السحاب، وهو يرمز إلى سمعان الغيور، الذي كانت غيرته قبلاً تهب كالريح في كل مكان. ولكنه فيما بعد، تتلمذ للمسيح فحصر طاعته له وحده. والثاني عشر جمشت، والذي من خواصه حماية حامله من السكر، وقد شبه به الرسول فيلياس.

ولقد توصل الفن المسيحي شيئا فشيئاً، من دون أن يجعل ذلك قاعدة قارة ومطلقة، إلى إضفاء اللون الأبيض على الأب، واللون الأزرق على الابن، والأحمر للروح القدس، كما أضفى اللون الأخضر على الرجاء، والأبيض على الإيمان، والأسود على التوبة، والأحمر على المحبة والإحسان، والأبيض على العفة والطهارة....

أما في التقاليد الإسلامية فإن للألوان دلالات واسعة جداً ومشبعة بالمعتقدات السحرية، فالحيوانات السوداء رمز للشؤم (الكلب الأسود، الهرة السوداء، الدجاجة السوداء....) وعلى عكس الأسود، فالأبيض هو لون النور واللمعان، وكذلك الأخضر فهو فأل خير ورمز للنمو والإنبات....

ولدى المتصوفة سلم للألوان يمثل ظواهر النور المطلق في حالات التجلي والإنخطاف. فعند جلال الدين الرومي، يذهب أحدها من اللون الأزرق ، فالأحمر، فالأصفر مروراً بالأبيض إلى الأخضر والأزرق الشاحب وصولاً إلى النور الذي ليس له لون. وهناك سلم آخر يذهب من الأبيض (لون الإسلام) إلى الأصفر (لون المؤمن) فالأزرق الغامق (لون عمل الخير) إلى الأخضر (لون السلام) فاللازوردي (اليقين الفطري) فالأحمر (لون المعرفة الإلهية) فالأسود (لون الوجود الإلهي) أي اللون بمعناه الأصلي، وهو الحاوي كل الألوان حيث لا يمكن أن نميز لوناً آخر في داخله). كما يرى الرومي أن الأحمر والأخضر يرمزان للنعمة الإلهية، ويحملان للروح الكائنة في الظلمة رسالة الأمل، والأحمر القادم من الشمس هو بهذا المعنى أفضل الألوان.

وتعتبر المراكز الأشراقية للكائن البشري – بحسب طريقة الذكر عند الأساتذة النقشبنديين – مترابطة ومقرونة بالأنوار. وهكذا فإن القلب: أصفر، ونور الروح: أحمر، ونور الوسط الحساس وهو ما يسمى بالسر: أبيض، والوسط، ويسمى المحجوب: أسود. وللمستور نور أخضر.

يقول الجيلي في دراسته "الإنسان الكامل" إن المتصوفة شاهدوا السماوات المرتفعة فوق الأرض والماء والهواء والنار، وإنهم يستطيعون تفسيرها لأهل الأرض.

- سماء القمر، مخلوقة من طبيعة الروح، موطن آدم، لونها أبيض من الفضة.

- سماء عطارد، مخلوقة من طبيعة الفكرة، موطن بعض الملائكة، لونها رمادي.

- سماء فينوس، مخلوقة من طبيعة الخيال، موطن عالم المتشابهات، لونها أصفر.

- سماء الشمس، مخلوقة من نور القلب، صفراء من الذهب اللماع.

- سماء المريخ، مخلوقة من نور الحكم والحساب، يحكمها عزرائيل ملاك الموت، لونها أحمر دموي.

- سماء جوبيتير، مخلوقة من نور التأمل، مسكونة من الملائكة ورئيسها ميخائيل، لونها أزرق.

- سماء زحل، مخلوقة من نور الذكاء، لونها أسود.

ويصف الجيلي أيضاً تطابق الحدود السبع للأرض مع الألوان:

- أرض الأرواح، مخلوقة أكثر بياضاً من الحليب، لكنها أصبحت بلون الغبار، بعد أن مشى عليها آدم بعد سقوطه، باستثناء منطقة في الجهة الشمالية، وهي مسكونة بأشخاص من العالم غير المرئي.

- أرض النساك، مسكونة بالجن المؤمن بالله، لونها زمردي.

- أرض الطبيعة، لونها أصفر زعفران مسكونة بالجن غير المؤمن.
- أرض الشهوة، مسكونة بالشياطين، لونها أحمر دموي.
- أرض الطغيان، مسكونة بالشياطين، لونها أزرق نيلي.
- أرض الإلحاد، لونها أسود كالليل.
- أرض الشكاوى (البؤس) أرض جهنم[1].

هذا وقد اتخذ اللون بعداً سياسياً في الإسلام. فدخل اللون الأسود مع العباسيين في شعارات الخلافة، وفي مرافق الدولة بصورة عامة، وأصبحت الرايات السود رمز الثورة العباسية.

وبحسب البخاري ومسلم، أن الرسول كان يضع عمامة سوداء يوم دخوله إلى مكة، ويقال أيضاً إن رايته الشخصية المسماة العقاب كانت سوداء، وبحسب رواية أخرى كانت خضراء. وقد جعل

---

[1] هناك من ربط بين الأحلام والألوان ، فرأى أن الأحلام الملونة عبارات كاشفة للاوعي. فهي تمثل شيئا من مزاج الحالم ونفسيته، وتفسر مختلف الاستعداوات والذبذبات النفسية. وفي المفهوم التحليلي – كما عند يونغ – تعبر الألوان عن الوظائف الأساسية النفسية للإنسان: الفكر، الشعور، الحدس، والإحساس. الأزرق لون السماء، الروح، وعلى الصعيد النفسي هو لون الفكر. الأحمر لون الدم، الانفعال، الشعور. الأصفر لون النور، الذهب، والحدس. الأخضر لون الطبيعة، النمو، ومن الناحية النفسية يرمز إلى وظيفة الإحساس (الواقع) فيكون الوسيط بين العالم والحقيقة.

العلويون من اللون الأخضر شعارا لهم، وسار القرامطة تحت الرايات البيضاء....

وقد اختلفت ألوان الأعلام الإسلامية في كل خلافة، فقد كان علم الدولة الإسلامية أبيض زمن الرسول والخلافة الراشدة، وأخضر زمن ملوك بني أمية، وأسود زمن العباسيين، وأحمر مع الدولة العثمانية.

وتتعدد رمزية الألوان في عقائد أفريقيا السوداء، فاللون في هذه القارة، إضافة إلى كونه رمزاً دينياً، هو أيضاً محمل بالأحاسيس والقوة، تمكن الألوان المختلفة من الوصول إلى معرفة الآخر والتأثير عليه، كما تتمتع بقوة سحرية. فاللون الأبيض هو لون الأموات، بل قد يذهب بمعناه الطقوسي إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما يستخدم لإبعاد الموت، أو يضفي قوة شفائية كبرى. والأبيض هو غالباً لون المرحلة الأولى في طقوس التلقين، أي مرحلة مقاومة الموت. والأصفر الترابي هو وسيط، لون محايد يستخدم في تزيين الأرضية، لأنه لون الأرض ولون الأوراق الميتة. والأحمر لون الدم، لون الحياة، الأمهات اليافعات، المتدربون الصغار، الرجال الناضجون في طقوسهم الفصلية، جميع هؤلاء يتزينون باللون الأحمر. الأسود لون الليل ولون التجربة، العذاب والأسرار الخفية، وقد يكون ملجأ للخصم

عند الكمائن. والأخضر نادر الاستعمال منفرداً، الأوراق الخضراء زينة للمتدربين في مرحلة انتصار الحياة.

وللحركة الماسونية أيضاً رموزها اللونية، فالأبيض يطابق الحكمة، النعمة والنصر، والأحمر للذكاء، القسوة والمجد. والأزرق يطابق التاج والجمال والأسس، كما يمثل بالنسبة لهم السماء والمعبد والقبة المنجمة، أما الأسود فهو للملكوت والمملكة.

كما عرفت الخيمياء سلما للألوان. ووفق نظام تصاعدي، ربطت الأسود بالمادة، بالمستور، بالخطيئة، وبالتوبة، والرمادي بالأرض. والأبيض بالزئبق والبراءة والتنوير والسعادة. والأحمر بالكبريت، بالدم، بالانفعال، بالشهوة وبالتسامي. والأزرق بالسماء.

بعد هذه النظرة الشاملة إلى رمزية عدد من الألوان في عدد من أهم العقائد والحضارات، من المناسب التوقف عند كل واحد من الألوان، الأساسية منها على الأقل، لتبيان دلالتها ورمزيتها منذ فجر التاريخ وحتى أيامنا هذه، وذلك في مختلف الحضارات وجميع أصقاع الدنيا بالاستناد الى ما ذكره المؤرخون والباحثون مبتدئين باللون الأبيض.

الفصل الثاني

اللون الأبيض (لون الفجر والعبور)

اللون الأبيض، كاللون الأسود المعاكس له، يقع في طرفي السلم اللوني. إنه لون تام ومكتمل، يختلف فقط في تدرجه – من الكامد (البارد) إلى اللامع – تارة يعني الضباب، وتارة هو حصيلة الألوان. يرتكز أحياناً عند بداية أو نهاية الحياة النهارية والعالم المعلن، وهذا ما يمنحه قيمة مثالية. غير أن نهاية الحياة، أي لحظة الموت، وهي لحظة عبور عند نقطة الاتصال بين المرئي وغير المرئي: إذن هي إقلاع جديد. الأبيض هو لون المرشح، أي من يريد أن يغير الشروط (المرشحون للمناصب العامة يرتدون الأبيض).

معظم الشعوب التي لونت الجهات الأربع، اعتبرت الأبيض لون الشرق والغرب، نقطتي الطرفين النقيضين والغامضين حيث الشمس، نجمة الفكرة النهارية تشرق وتغرب كل يوم.

الأبيض في الحالتين هو قيمة نهائية كما طرفي خط الأفق اللانهائي. هو لون العبور. أبيض الغرب هو الأبيض البارد للموت، الذي يمتص الإنسان ويدخله إلى العالم القمري البارد المؤنث الذي يفضي إلى الضباب، إلى الفراغ الليلي، إلى فقدان الوعي والألوان النهارية.

أبيض الشرق هو لون العودة، لون الفجر، حيث القبة الزرقاء تعاود الظهور بدون ألوان، ولكنها غنية بالتجليات الكامنة التي تشحن العالم الكبير والعالم الصغير.... ينزل أحدهما من اللامع الساطع، ويصعد الآخر من البارد إلى اللامع، هاتان اللحظتان، وهذان البياضان هما الفراغ المعلق بين الحضور والغياب، بين القمر والشمس، بين وجهي ووجهتي المقدس. وكل رمزية اللون الأبيض، واستعماله الطقوسي، ينحدر من هذه التأملات للطبيعة التي بنيت منها جميع الثقافات الإنسانية الفلسفية والدينية.

يقول كاندنسكي، الذي رأى أن مشكلة الألوان تتعدى مشكلة علم الجمال: الأبيض الذي غالباً لا نعتبره لوناً... هذا الأبيض هو

كالسكون المطلق يؤثر على روحنا، هذا الصمت ليس موتاً، إنه يفيض بإمكانات حية، هو لا شيء مملوء بفرح الشباب، هو لا شيء قبل الولادة، قبل كل بداية، إنه صدى الأرض البيضاء والباردة في العصر الجليدي، لا يمكننا وصف الأبيض وتسميته إلا على إنه الفجر.

يسبق الموت الحياة في كل فكرة رمزية، وكل ولادة هي إعادة ولادة. الأبيض بداية لون الموت والحزن، وهذا هو الحال في كل الشرق، كما كان لوقت طويل في الغرب، وتحديداً خلال حكم الملوك في أوروبا.

تحت وجهه المشؤوم يكون اللون الأبيض عكس اللون الأحمر، لون مصاص الدماء الباحث عن الدماء (شرط الحياة النهارية) التي سلبت منه. هو لون الكفن لجميع الأشباح والتجليات والخيالات.

يقول م. الباد: غالباً ما يكون الأبيض هو لون المرحلة الأولى من طقوس تلقين الديانة، مرحلة مقاومة الموت أو بالأحرى مرحلة الانطلاق نحو الموت. بهذا المعنى الغرب أبيض بالنسبة لشعوب الأزتيك، الذين كانوا يؤمنون بأن الحياة الإنسانية وتماسك الكون يتوقفان تماماً على الدورة الشمسية. ويسمى الغرب – حيث تختفي نجمة النهار – بيت الغياب، ويمثل الموت، أي الدخول في الغيب.

ولضمان تجدد الشمس كان المحاربون الذين يقدمون قرابين، يزينون بالريش الأبيض، وينتعلون أحذية بيضاء، وهذا يكفي للدلالة على أنهم لم يعودوا من هذا العالم، ولم ينتقلوا إلى العالم الآخر بعد. فاللون الأبيض هو لون الخطوات الأولى للروح، قبل ارتفاع روح المحاربين المضحى بهم.

كما أن جميع آلهة مجمع الأرباب لدى الأزتيك، بحسب الميثولوجيا الخاصة بهم – كانوا يرتدون الأبيض عندما يحتفلون بالذبيحة التي تعقبها قيامة.

يضع هنود البابلو اللون الأبيض في الشرق للأسباب نفسها، فبحسب اعتقادهم يغطي الشرق الخريف والأرض العميقة والدين.

لون الشرق، بهذا المعنى، لا يكون الأبيض فيه لوناً شمسياً. إنه ليس لون الصباح، إنه لون الفجر، لحظة الفراغ المطلق بين الليل والنهار، حيث ما زال العالم الحلمي يغطي كل الحقيقة: الكائن فيه مكبوت، معلق في بياض مفرغ ومستسلم. ولهذا السبب يرتدي المحكوم عليه القميص الأبيض، قميص الخضوع والاستسلام، وكذلك هو حال الثوب الأبيض لمتناولي القرابين، وثوب العروس.... لكن لا هو ثوب الذاهبة باتجاه الزواج: وباكتمال ذلك، يترك الأبيض مكانه للأحمر تماما كما يتكون أول مظهر لانبلاج النهار بظهور آلهة

الجمال الحمراء على لوحة خلفيتها الفجر البارد والهادئ كما القماش، بحيث نتكلم بعدها عن أعراس النهار. هو البياض البتول قبل تفجر الدم بفعل مبضع الجراح. لون الطهارة الذي هو في الأصل سكون، يعبر عن أن لا شيء قد اكتمل، شبيه بالمفهوم الأولي للبياض البكر. ولهذا يدفن الأطفال في الطقس المسيحي في كفن أبيض مزين بالورود البيضاء.

والأبيض هو لون الموت لدى الأبورجيين سكان استراليا الأصليين. ففي طقوس لا تزال قائمة حتى اليوم، يقوم الأبورجيون بطلاء أجسامهم بخطوط بيضاء محولين أنفسهم إلى هياكل عظمية كي يتم تناسخ السلف في سلالاتهم.

ويستخدم اللون الأبيض في بعض مناطق أفريقيا للدلالة على من يرتديه بات مؤقتاً خارج الجسم الاجتماعي (الأرامل، الشباب الذين تجري لهم عملية ختان). هذا الأبيض البارد الذي ترتديه الأرامل هو بياض تاريخي، أمومي، مصدر ، ينتظر العصا السحرية لإيقاظه، منه السائل الأول المغذي، الحليب الغني بالقوة الحية، مازال ممتلئاً بالحلم، الحليب الذي يأخذه الطفل حديث الولادة قبل أن يبصر النور (يفتح عينيه للنهار) حليب بياضه بياض الزنبق واللوتس وصور المستقبل، اليقظة الغنية بالوعود، بالإمكانات، الحليب نور

الفضة والقمر الذي في استدارته الكاملة (عند اكتماله) مثال أصلي ونموذج مثالي للمرأة الخصبة الواعدة بالغنى والشباب.

وهكذا يحدث التغيير تدريجيا، النهار يتبع الليل، تستيقظ الروح، وتعلن سطوع وبهاء بياض النور النهاري الشمسي الايجابي والذكوري. إثر أبيض حصان الحلم حامل الموت، يأتي أبيض أحصنة ابولون الذي لا يستطيع المرء أن يحدق فيه دون إعجاب.

كانت العمادة - الطقس البدني السري - في بداية المسيحية تسمى: إشراقا، أما حديث الولادة عند المسيحيين فيتم إلباسه ثياباً بيضاء ناصعة.

هذا الأبيض الايجابي هو لون الاحتشام لطبقة الكهنوت عند شعوب السلت وحتى للملك، بل إن جميع الملوك والكهنة والشعراء الذي ينتمون إلى طبقة الكهنوت لهم الحق بارتداء البياض. واقترن النعت بالبياض في العديد من لغات العالم بالقداسة والملائكة والفرح.

وفي البوذية اليابانية، ارتبطت الآلهة البيضاء، واللوتس الزهرة البيضاء بحركة قبضة المعرفة للملهم الكبير بوذا.

والأبيض في بعده الأسطوري هو لون آلهة الحب والجمال عند الرومان التي ولدت في زبد الماء الأبيض.

ولبرودة اللون الأبيض، يرتدي سكان المناطق الحارة الثياب البيضاء لأن هذه الألوان تعكس ضوء الشمس كونها توافقه. والأبيض بحكم كونه يختزل الألوان جميعها هو اللون البدئي، لذا يصبح عند موافقته النهارية لون الكشف والرؤيا والنعمة، والتجلي المبهر، وموقظ الإدراك والفهم ومتجاوزهما في آن معاً. إنه لون التجلي الإلهي الذي يبقى محيطاً برأس كل من يتعرف إلى الله على شكل هالة من النور، الذي هو حاصل أو مجموع الألوان. هذا البياض المنتصر لا يمكن أن يظهر إلا في القمة.

وعندما تجلى يسوع المسيح أمام بطرس ويعقوب ويوحنا الذين صحبوه إلى جبل حرمون شع وجهه نوراً... وأصبحت ثيابه متألقة ناصعة البياض، أشد بياضاً من الثلج. وجاء في رؤيا يوحنا، ثم رأيت عرشاً أبيض... والعرش هنا كناية عن فضائل القديسين، وهي عرش عظيم لأن عليها يستريح الرب. هو عرش أبيض لأنه خال من الخطيئة واسودادها.

كما كان الفرس الأبيض في الرؤيا يدل على الرسل القديسين الذين "بيضوا سواد الكفر، وأناروا الأمم التي يسيطر عليها الظلام" "ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض والراكب عليه يدعى أميناً وصادقاً، وبالعدل يحكم ويحارب".

وقد تميز اللون البيض في الإسلام عن سائر الألوان في وظيفته، وطبيعته، ورمزه ودلالاته، فهناك شبكة من العلاقات تربط بين هذا اللون وسلوك الإنسان، وتستخدم في الحياة اليومية من مثل: الأيادي البيضاء، الوجه الأبيض، الراية البيضاء، "الليالي البيض" (من كل شهر حيث يكتمل البدر) "وقّع على بياض" الخيط الأبيض (أول ضوء النهار).

وقد استخدم القرآن الكريم اللون الأبيض منفرداً غير مرة، أو مقترناً مع اللون الأسود، فقد ذكر اللون الأبيض في اثنتي عشرة آية، خمس منها عن لون يد موسى عندما ناظر السحرة، وطلب منه أن يدخل يده في جيبه ﴿لتخرج بيضاء من غير سوء﴾ كما "ابيضت" عينا يعقوب من الحزن على يوسف، واستخدم اللون الأبيض لوصف الجبال، والخيط يفصل بين الليل والنهار، ووصف وجه من أنعم الله عليهم بالجنة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]، كما في وصف الكأس الذي يدار على أهل الجنة وهنا وصفت الخمرة بالبياض، وذلك لما لهذا اللون من تأثير يبعث على المتعة والجمال، ولما يحمله اللون

---

[1] سورة آل عمران، الآيتان 105 و106.

الأبيض من دلالـــة على الصفـــاء والنقاء ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝﴾[1]. كما وصفت حواري الجنة ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝﴾[2]، وهذا يحمل في معانيه معنى الطهارة والنقاء المختص بالحوريات، إضافة إلى صفة الجمال المتمثل بالبياض الناصع.

واللون الأبيض في الإسلام هو لون إحرام الحجيج، لأنه يختزل أعمال الإنسان وسيرته وتاريخه ويمزجهما فتغدو لا لون لها أو بتعبير أدق تعود إلى بكارتها الأولى.

وخلاصة القول إن الغالب على اللون الأبيض أنه رمز الصفاء والعفة، والنظافة، والطهارة، والوضوح، قال عنه لوكور بوزييه: إنه الوضوح والنزاهة، ضعوا إلى جانبه ألواناً أو أشياء غير نظيفة، وسنكتشف سريعاً أنه عين الحقيقة، ولهذا فقد دخل الأبيض ميدان الأدب من بابه العريض، فالحصان الأبيض وفارسه الوسيم، رمز الأحلام الجميلة للفتيات يمثل منزلة مميزة في عالم الرواية، كما صاغت منه الدراما فناً يحاكي المشاعر واللواعج، كما أن الأدب الشعبي اهتم به اهتماماً كبيراً فجعله رمزاً للحسن والجمال.

---

[1] سورة الصافات، الآيتان 45 و46.

[2] سورة الصافات، الآية 49.

وإذا كان الأصفر لون الذهب، فإن الأبيض هو لون الفضة، معدن أبيض وبراق، رمز لصفاء الضمير والنوايا العفيفة، للصراحة والاستقامة.

إذا كانت هذه هي حال الأبيض فما هي حال اللون الذي غالباً ما يجمعهما الكلام معاً، أعني نقيضه اللون السود.

الفصل الثالث

اللون الأسود (لون القوة)

الأسود هو اللون المضاد للأبيض، والمعادل له كقيمة مطلقة، وهو كالأبيض من حيث إمكانية وجوده في طرفي السلم اللوني، بما هو نهاية للألوان الباردة والحارة أيضاً، وبحسب كموده أو لمعانه يصبح غياباً أو حصيلة الألوان، سلبها أو نتيجتها.

مضاد لكل الألوان، يرتبط الأسود بالظلام الجوهري البدئي اللامتميز. وهو بهذا المفهوم يسترجع كرافعة معنى ومدلول الأبيض البارد، الأبيض الفارغ. من هنا استعماله كرافعة لتصورات رمزية مماثلة كأحصنة الموت، فهي تارة بيضاء وتارة سوداء.

ولكن الأبيض المحايد والظلامي مرتبط في صور الكون بالمحور شرق – غرب، الذي هو نقطة الانطلاق والتحول، فيما يقع الأسود على محور شمال – جنوب، الذي هو التجاوز والتفوق المطلق، وطرفا محور الأرض . وبحسب ما تضع الشعوب موقع جهنم، وما تحت العالم، باتجاه الشمال أو الجنوب، يكون هذا الاتجاه أسود (الشمال أسود بالنسبة للصينيين وشعوب الأزتيك، والجنوب هو الأسود بالنسبة للمايا....).

قائم تحت الأرض، يعبر الأسود عن السلبية المطلقة، حالة الموت التامة واللامتغيرة، الأسود إذن لون الحداد، ليس كما الأبيض، بل بطريقة مفجعة. في الحداد الأبيض شيء من المسيحية، غياب مخصص يعاود الامتلاء، حداد الملوك والآلهة الذين حكماً سيولدون من جديد: مات الملك، عاش الملك. هذا يلائم البلاط في فرنسا حيث الحداد باللون الأبيض. بإمكاننا القول إن الحداد الأسود هو حداد بلا رجاء. الحداد الأسود هو الفقدان النهائي، السقوط في العدم بلا عودة.

لون العقوبة والإدانة، يصبح الأسود لون الزهد أيضاً بهذا العالم الباطل، من هنا المعاطف السوداء التي تكون إشهار الإيمان في المسيحية والإسلام.

المعطف الأسود عند الملاوية (الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم) يمثل شاهدة القبر.

في مصر، وحسب هورا بولون، اليمامة السوداء هي هيروغليفية المرأة التي تبقى أرملة حتى مماتها. يمكن اعتبار هذه اليمامة السوداء ايروس (غريزة الحب عند فرويد) المحروم والحياة المنتفية. كما أننا نعرف اللعنة التي تجلت من المراكب ذات الأشرعة السوداء، منذ الملحمة اليونانية، وصولاً إلى ملحمة تريستان.

لون الحداد في الشرق هو الأسود، وهو في الأصل رمز الإخصاب كما في مصر القديمة، وفي أفريقيا الشمالية: لون الأرض الخصبة والغيوم الممتلئة بالمطر، لون المياه العميقة (شاهد هوميروس المحيط الأسود)، آلهات الخصب الكبيرات، آلهات الأمهات الهرمات هن دائماً سوداوات بفضل أصولهن المظلمة، ترافق العذارى السوداوات ايزيس، آتون، ديمتري، سيبال وأفروديت السوداء. يقول أورفيه: أغني الليل، والدة الآلهة والرجال، الليل أصل كل الأشياء المخلوقة، نحن نسميه فينوس. هذا الأسود يكسي باطن الكون داخل العتمة الكبيرة الحبلى حيث يصنع الأحمر من النار والدم، رمز القوة الحياتية. من هنا التضاد المألوف للأحمر والأسود على محور شمال – جنوب أو العكس. من هنا جمع هذين اللونين في أكثر من أثر فني في مختلف أصقاع الدنيا (لدى الأزتيك، تصوير أسطوريين على مزهرية يونانية يركبون حصانين أحدهما أحمر والأخر أسود، بدلة كميليوس دليل الأرواح الكبير عند سكان بعض

المناطق الايطالية القديمة: الجسد باللون الأحمر، والأجنحة والسترة والجزمة باللون الأسود....).

كما يعبر الأسود أيضاً عن المرجعية والقوة، غالباً ما يكون لباس رجال الدين أسود اللون، ويضع علماء الشيعة الأمامية على رؤوسهم عمامة سوداء اللون. كما قد يعني السواد الخضوع إلى الله، ولهذا نجد من يقول إن الأنبياء تمثلت به في رفع الراية أو غطاء الرأس، ولهذا قيل أيضاً إن لبس المرأة للأسود في المناسبات الحميمة (السهرات الخاصة) يعني الاستسلام والانقياد للرجل، كما أن لبسه في المأتم خضوع للقدر ولله في حكمه.

في لغة شعارات الأنساب، يسمى الأسود الرمل، وهذا يفسر قرابته مع الأرض العاقر غير المخصبة التي يرمز إليها عادة باللون الأصفر الصلصالي، الذي يكون أحياناً بديلاً للون الأسود. الرمل يعني التأني والحكمة والصبر على الحزن والمحن. من هذه الرمزية ينبثق البيت الشعري الوارد في نشيد الأناشيد: أنا سوداء ومع ذلك جميلة... الذي يعتبر حسب مفسري العهد القديم رمزاً للاختبار الكبير. ذلك أن الأسود اللامع والدافئ – سليل الأحمر – يمثل مجموع الألوان، ويصبح النور الإلهي في الفكرة الصوفية الإسلامية.

فهذا جلال الدين الرومي، الذي يشبه المراحل المتدرجة الداخلية عند المتصوف لبلوغ السعادة القصوى بالسلم اللوني، يرى أن نقطة الانطلاق تبدأ من الأبيض – الذي يمثل كتاب الشريعة القرآنية – لبلوغ الأسود عن طريق الأحمر: هذا الأسود، بحسب جلال الدين، لون مطلق، نهاية كل الألوان الأخرى، يصل معه المتصوف إلى مرحلة رفيعة من النشوة، حيث تظهر الألوهية للمتصوف وتبهره.

وهناك الأسود البراق، الذي يطابق الأبيض البراق. الحجر الأسود في مكة أسود براق.

هذا وقد ورد اللون الأسود في أربع آيات من القرآن الكريم ذكر فيها المجرمون والكفار والمنافقون، وواحدة منها جاءت تصف توقيت بدء الإمساك عن الطعام.

وقد ذُكر الأسود في الإسلام في سياق الحديث عن كراهية أهل الجاهلية للأنثى، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ ﴾[1]، فكأن كظم الغيظ والضيق يجعل النفس سوداوية، وهذه السوداوية تلتمس في الوجه على أن للسواد دلالة خاصة في القرآن عندما يتصف به المشركون فنهايتهم سوداء ومقرّهم النار. وقد

---

[1] سورة النحل، الآية 58.

يستخدم اللون الأبيض في القرآن للدلالة على ظهور الفجر، واللون الأسود للتعبير عن ظلمة الليل وسواده.

في الشرق الأقصى، ترمز ثنائية الأسود والأبيض بصورة عامة إلى الظل والنور، النهار والليل، المعرفة والجهل، الين واليانغ، الأرض والسماء.

الأسود بصورة عامة هو لون المادة الكونية، لون الجوهر اللامتشكل، السديم البدئي، الحياة السفلى، الشمال، والموت. وهو بهذا المعنى الرمز الأعلى لعدم التجلي والبكارة البدئية: بهذا المفهوم يرتبط رمز العذراوات السوداوات القروسطية. وهذا يشابه الكريشنا الخالد الذي هو معتم، بينما أرجونا الفاني، هو الأبيض الصور البصرية للذات الكونية والأنا الفردية.

تستحضر الـ (هيه Hei) الصينية اللون الأسود، والانحراف والضلال والتوبة، فسواد الوجه الشعائري (الطقوسي) هو علامة الخشوع التي تؤشر إلى توسل المسامحة على الأخطاء.

عمل الأسود المنغلق، العصي على الفهم، هو الموت والعودة إلى السديم اللامتميز.... ومن وجهة نظر التحليل السيكولوجي، يعتبر الأسود في الأحلام الليلية أو السوداء، أو الإدراكات الحسية الحساسة لحالة الأرق، غياباً لكل الألوان، لكل نور. فالأسود يمتص الضوء ولا يعيده، إنه يستحضر قبل كل شيء، السديم، العدم، السماء الليلية،

والظلمات الأرضية لليل، السوء، الغم والحزن، عدم الإدراك، اللاشعور والموت.

والأسود هو الأرض الخصبة أيضاً، الإناء، جاء في الإنجيل (إذا لم تمت الحبة)، فالأرض التي تحتوي الأضرحة، تصبح مسكن الأموات، ومحضرة لولادتهم من جديد كالحبة. ولهذا كانت احتفالات عبادة بلوتون إله الجحيم تشتمل على ذبائح وأضحية من حيوانات سوداء مزينة بشرائط من نفس اللون. هذه الأضحية لا مكان لها سوى في الظلمات، أما رأسها فيتجه نحو الأرض.

يذكر الأسود أيضاً بالأعماق السحيقة واللجج المحيطة (في بحر لا قعر له، في ليل بدون قمر)، وهذا ما حدا بالقدماء إلى تقديم ثيران سوداء أضاحٍ للكوكب نبتون.

وبما أنه يستحضر العدم والسديم، إلى الغموض واللاتميز، فهو عتمة البدء: يسبق الخلق في جميع الديانات (قبل أن يتكون الضوء كانت الأرض بلا شكل محدود، فارغة، الظلمات تغطي وجه الهوة – الكتاب المقدس).

في الميثولوجيا اليونانية – اللاتينية، كان السديم (الخواء) هو الحالة الجوهرية البدئية للعالم. أنجب السديم الليل، الذي تزوج أخاه ايريب فولد الأثير.

ولكن، وفي تلك الأثناء، إضافة إلى النوم والموت ولَّد الليل كل مآسي العالم كالفقر، والمرض، والهرم والعذاب.... ومع ذلك، وعلى الرغم من الغم والكآبة التي تحدثها الظلمات اعتبر اليونان الليل أماً للنصيحة الجيدة، وهذا ما نعبر عنه نحن بالقول: الليل يحمل النصيحة....

وإذا كان الأسود مرتبطاً بفكرة الشر، فهذا يعني أنه مرتبط بكل ما يعاكس أو يؤخر مخطط التطور والتقدم الذي يريده الإله.... هذا هو الأسود الذي يستحضر ما يسميه الهندوس الجهل والجهالة، ظل جونغ، وحية – التنين الشيطانية في الميثولوجيا.... كما نجد في بعض الصور النادرة جداً في القرون الوسطى صورة يوضاس الخائن، تحيط بها على الدوام هالة سوداء.

هذا الأسود المرتبط بالشر واللاوعي نجد تجسيداً له في العديد من التعابير التي تبدو عفوية ولكنها عميقة الدلالة: سوداء الروح، رواية سوداء، أفكار سوداء، حظ أسود (سوء الحظ)، قلب أسود (دلالة على الحقد الكراهية) نهار أسود (سوء العاقبة) رفع الراية السوداء (للدلالة على الخطر: القراصنة مثلاً) قائمة سوداء (الملاحقين والخطرين....).

في فرنسا يقال عن الشخص المكروه جداً: حيوان أسود، ولأن الأسود يسم الحزن والتشاؤم والشجن أو المصيبة، نجد في اللغة اليومية

تعابير من مثل: مزاج أسود أي مكتئب، أفكار سوداء أي مهمومة، وبؤس أسود أي فقر مدقع... ويقول الإنكليز عن يوم الاثنين حيث يرجعون إلى المدرسة بعد عطلة نهاية الأسبوع الإثنين الأسود!!

وعندما يستحضر الأسود الموت نجده في لباس الحداد، وفي الثياب الكهنوتية، وفي المناسبات الدينية الحزينة كما في عاشوراء أو في يوم الجمعة العظيمة.

أخيرا يتصل الأسود بالألوان الشيطانية، ليستحضر مع الأحمر المادة المشتعلة. يسمى الشيطان أمير الظلمات.

في تأثيره على النفس، يولد الأسود الإحساس بالكثافة والتخثير والثقل. وهكذا فإن شيئاً ما لوّن بالأسود يبدو أكثر ثقلاً مما لو كان ملوناً بالأبيض، لكن هذا لا يحول دون أن تأخذ لوحة معتمة بالصور اللونية السوداء مظهراً ايجابياً.

وإذا كان الأسود صورة للموت، فالأرض، والمقبرة، والعبور الليلي للمتصوف، إلا أنه يرتبط أيضاً بالوعد بحياة متجددة كالليل الذي يحتوي على وعد بالفجر، والشتاء الذي يعد بالربيع وأخيراً يتماثل الأسود مع ين (المؤنث الصيني) الأرضي الحدسي والأمومي، ومع العديد من الآلهات الأمهات، والعديد من العذارى في مختلف الحضارات اللواتي صورن الأسود.

أما في الأحلام فظهور الحيوانات السوداء، الزنوج، الأشخاص الداكنين، يدل على علاقتنا مع عالمنا الحدسي البدئي الخاص الذي يرتبط بالتنوير والتدجين والأنس، وتوجيه القوى نحو ما هو أكثر رفعة.

وإذا كانت علاقة الأسود بالأبيض من حيث الظاهر علاقة تضاد، فإن علاقته مع الأحمر أكثر تعقيداً، فماذا عن اللون الأحمر؟

الفصل الرابع

اللون الأحمر (لون الروح والشهوة والقلب)

يعتبر الأحمر عامة الرمز الأساس لمبدأ الحياة بقوته، وقدرته، ولمعانه، هو لون الدم والنار، يملك دائماً نفس التعارض الوجداني لعنصري الدم والنار.

الأحمر الفاتح، الساطع، النابذ، هو نهاري، مذكر، محفز للعمل والسلوك، يلقي ألقه على كل شيء كما الشمس، بقوة لا مجال لخفضها.

الأحمر القاتم، بخلاف ذلك، ليلي، مؤنث، سر، جاذب، يمثل غموض الحياة.

أحدهما يجذب، يشجع، يذكر، هو أحمر الأعلام والرايات، الشعارات واللافتات، عناوين المحلات، الإعلانات.... والآخر ينذر، يدعو إلى الاحتراس، يجر إلى التيقظ والى النهاية الحزينة، هو أحمر إشارات المرور، حجرة العمليات، اللمبة الحمراء للبيوت المغلقة، وهنا عوض عن أن يمنع فإنه يدعو، غير أن هذه الدعوة متعلقة بانتهاك الممنوعات (الغريزة الجنسية، الشهوة....).

هذا الأحمر الليلي الجاذب، هو لون النار المركزية للكائن وللأرض، لون الباطن، وتنور الخيميائيين حيث في العمل الأحمر يتم الهضم والنضوج واللقاح وبعث الإنسان أو العمل.

الأحمر هو لون الروح، لون الشهوة، لون القلب. هو لون العلوم والمعرفة الباطنية الممنوعة على غير المسارين، لأن الحكماء يخفونها تحت معاطفهم: في أوراق التاروت، الناسك، البابية (امرأة برتبة البابا)، الإمبراطورة، يرتدي هؤلاء الثلاثة الثوب الأحمر تحت مشلح أو معطف أزرق، إذ لكل واحد منهم رتبة مختلفة، تمثل العلوم السرية.

هذا الأحمر لا نشاهده بوضوح إلا خلال الموت المتعلق بالمسارة حيث يأخذ قيمة سرية: فالمسارين في أسرار سيبيل (Cybele) ينزلون في حفرة، وقد غطيت أجسادهم بدماء ثور أو

جدي، وضع على مشواة فوق الحفرة، تمت التضحية به طقوساً فوق رؤوس المسارين، وفي غضون ذلك تنطلق الأفعى لتشرب مباشرة من جرح الأضحية.

في المسيحية، يصور الفنانون الملاك الذي بشّر العذراء بميلاد المسيح باللون الأحمر، كما يرمز الأحمر إلى دماء المسيح، وهو لون عباءة القديسين، ولون الاستشهاد في سبيل الدين.

في العبرية يعتبر الأحمر أصل الدم، وهو مساو للحياة.

في جزر الفيجي، يظهر صف من الرجال، يتظاهرون بالموت، تغطي الدماء أجسادهم المفتوحة وقد تدلت منها أحشائهم. عند صرخة الكاهن، يستوي هؤلاء الرجال المتظاهرين بالموت على أرجلهم، يركضون نحو ساقية لتنظيف أجسادهم من الدم، ومن أحشاء الخنازير التي كانت تغطيها.

كذلك نجد المحيطات اليونانية المحمرة، والبحر الأحمر، تتصف بالرمزية ذاتها، تمثل الجوف، حيث يجري تبادل الأدوار بين الموت والحياة، ويتحول أحدهما ليصبح الآخر.

مسارياً، هذا الأحمر القاتم الجاذب له أيضاً معنى جنائزي: فللون الأرجواني يحسب ارتميدور علاقة بالموت. من هنا هذا التناقض الوجداني الذي يختزنه اللون الأحمر القاتم، مستور: شرط

للحياة، منتشر يعني الموت. من هنا مصدر الحرم الذي يلحق بالنساء خلال مدة العادة الشهرية، فالدم المقذوف إلى الخارج هو الملوث، إذ انطلاق هذا الدم من الليل الرحمي إلى النهار يعكس استقطابية المرور من المقدس الأيمن إلى المقدس الأيسر.

وفي العديد من المجتمعات، لم يكن يسمح بلمس هؤلاء النسوة، قبل قضاء عطلة تطهيرية، تسمح بعودتهم إلى المجتمع الذي استبعدهن مؤقتا. وهذا الحرم أيضاً كان يطال الرجل الذي أراق دم رجل آخر، وذلك بدافع الإنصاف (يتم نفيه). وكذلك الجلاد بالثياب الحمراء، لا يلمس لأنه يمس الجوهر نفسه للغز الحيوي.

هناك أسطورة في الجزر الماليزية، رواها مالونسكي، تصور عالمية هذه المعتقدات وقدمها، إذ في بداية الأزمنة، اكتشف رجل سر وسحر السلطعون الذي كان أحمر اللون بفعل السحر الكامن فيه، قتل الرجل السلطعون وسلبه سره وسحره، صارت السلاطعين بعد ذلك سوداء، وهي لا تزال كذلك حتى يومنا هذا، لأنها جردت من سحرها، كما أنها تموت ببطء، ذلك لأنها كانت في سالف الأزمان سيدة الحياة والموت.

الأحمر الفاقع، النهاري الشمسي، النابذ، المحفز للفعل، هو صورة النشاط، والجمال، القوة النزقة، الكريمة، السخية، النبيلة،

صورة الشباب، الصحة، الغنى، الايروس (غريزة الحب عند فرويد) المتحرر والمنتصر... وهذا يفسر حضور وجهي الرمز هذا في الكثير من العادات.

غالباً ما كنا نلاحظ أن النساء والصبايا في أفريقيا السوداء يدهنون أجسادهن ووجوههن بالأحمر المخفف بالزيت النباتي، إثر أول حيض، عشية الزواج، وبعد ولادة أول طفل.

هذه الدهون الحمراء المخففة بالزيت النباتي، يتزين بها الشباب والصبايا من هنود أميركا، لأنها تعتبر منشطة ومثيرة للقوى، وموقظة للرغبة. كما قد تكتسب فضيلة طبية وتغدو ترياقاً ضرورياً قادراً على معالجة جميع الأمراض!

والأحمر لون مميز، يدخل في كثير من العادات في روسيا، والصين، واليابان، حاضر في المهرجانات والأعياد الشعبية، وبخاصة أعياد الربيع، واحتفالات الزواج والولادة. وهو مرتبط بالجمال عند الشعوب السلتية الايرلندية، فعندما يقال صبي أحمر أو فتاة حمراء، فمعنى ذلك أنه جميل أو جميلة.

وفي العربية يقال حمراء الظهيرة: شدة الحر. وفلان أحمر: لا سلاح معه. وأتاني كل أسود وأحمر: أي جميع الناس. وتطلق كلمة الأحمرين على العديد من الثنائيات ومنها: الذهب والزعفران، الخبز

واللحم، واللحم والخمر.... أما قولنا: أمضى ليلة حمراء، أي خليعة ماجنة، وأظهر له العين الحمراء: توعده وهدده، والشمع الأحمر والختم به: الإغلاق والمنع من الإطلاع أو التصرف....

والأحمر هو أيضاً وبامتياز لون المحاربة في التقاليد الايرلندية، وقد ورد في بعض النصوص الكهنة الحمر، وفي هذا إشارة إلى ثنائية وظيفتهم: كهنة ومحاربون.

ماجن ومحرر، الأحمر هو لون ديونيسوس، وكذلك هو لون الإله "مارس" إله الحرب. الأحمر الضارب إلى اللون البنفسجي هو شعار للسيطرة والقوة، هو الأرجواني، هذا اللون من الأحمر، كان في روما لون ثياب القادة الكبار، لون النبلاء والأشراف، ثم صار لون الأباطرة. لباس الأباطرة في القسطنطينية كان أحمر تماماً.... ومنذ القدم وجدت قوانين تحظر استخدام الدروع الحمراء إلا من قبل فئات محددة، كان قانون جوستينيان يحكم بالموت على بائع الأقمشة الأرجوانية ومشتريها، هذا يعني أن هذا اللون أصبح رمزاً للقوة العليا.

أما الأحمر والأبيض فهما مخصصان ليهوه إله الحب والحكمة، الذي يبدو أنه يدمج بين الحكمة والفتح، بين القوة والعدالة. سافراً وظاهراً للعيان، يغدو الأحمر خطيراً مثل غريزة القوة عندما

تكون خارج السيطرة: يقود إلى الأنانية والكره والانفعال الأعمى والحب الجهنمي، يرتدي ميتسفوفيليس معطف أمراء الجحيم الأحمر، فيما يرتدي الكرادلة معاطف أمراء الكنيسة، وجاء على لسان أحدهم معبراً عما قاله يهوه:

تعالوا نتحاور، يقول يهوه
عندما تصبح خطاياكم كالأرجوان
كالثلج ستبيض
عندما تصبح حمراء كالأرجوان
كالصوف تصبح

ما من شعب لم يعبر، كل على طريقته، عن هذا التناقض الوجداني حيث تصدر كل الطاقة الإغرائية للون الأحمر، الذي يستبطن بحميمية مترابطة، أعمق غريزتين إنسانيتين: العمل والشغف، التحرير والاضطهاد، والأعلام الحمراء التي ترفرف في أيامنا هذه خير دليل على ذلك.

هذا الأحمر الأرجواني الذي تحدث عنه الوصف الشعري يرجع إلى هذا التناقض الوجداني، وبشكل أساسي إلى تلك الشهوة اللامتمايزة التي تقتحم أحلام الأطفال، والتي إليها يرجع الانجذاب العام للون الأحمر.

أما أحمر الدروع، فإنه يعني بين الفضائل الروحانية، الحب الحار لله، كما يؤشر إلى عدد من الفضائل الاجتماعية كالشجاعة، وإلى عدد من الصفات الأخرى التي تعرف من السياق كالقساوة والقتل والمجازر....

وترى بعض الحضارات أن اللون الأحمر يدفع نحو التفكير بالحرارة، بالنار، والدم....

وفي رؤيا يوحنا يمثل الفرس الأحمر حرارة الإيمان والغيرة المتوقدة، أما في الشرق الأقصى فيستحضر الأحمر بصورة عامة الكثافة والعمل والشغف، هو لون الدم ولون الحياة، لون الجمال والغنى، لون الخلود، لون الصفاء والسعادة، لون التناسق والتمدد، وفي اليابان إذا أراد أحدهم تمني السعادة للآخرين قدم لهم أرزاً ملوناً بالأحمر!

الفصل الخامس

الأزرق (لون الفراغ والنقاء)

الأزرق أعمق الألوان، يدخله النظر دون أية عوائق، ويسرح فيه إلى ما لا نهاية، حتى لكأننا أمام هروب مستمر للون. هو لون أثيري، الأكثر تجريداً بين الألوان. تقدمه الطبيعة بشكل عام كمظهر للشفافية، للفراغ المتراكم، فراغ الهواء، فراغ الماء، فراغ الكريستال أو الماس، فراغ صحيح، صاف وبارد. هو الأبرد بين الألوان، والأنقى. من صفاته الأساسية هذه، تصدر مجموعة استعمالاته الرمزية.

الجسم المطلي بالأزرق، يبدو أصغر حجماً، الحائط الملون بالأزرق لا يبدو حائطاً. تضيع الحركات والأصوات والأشكال في اللون الأزرق، تغرق فيه، يغمى عليها في داخله، كالعصفور في السماء.

أثيري، روحي بحد ذاته، يزيل الأزرق الطابع المادي عن كل ما يمسك به، هو طريق اللانهاية حيث يصبح الحقيقي خيالياً. أليس هو لون عصفور السعادة، العصفور الأزرق المنيع، الذي بقدر ما هو قريب، بقدر ما يتعذر الوصول إليه؟

الدخول في الأزرق يشبه قليلاً أليس في بلاد العجائب، الدخول من الجهة الثانية في المرآة.

الأزرق الفاتح هو الأوهام وأحلام اليقظة، وعندما يغمق، وهذا ما يطابق نزوعه الطبيعي، يصبح طريق الحلم. تترك الفكرة الواعية المكان شيئاً فشيئاً للفكرة اللاواعية تماماً كما يتحول ضوء النهار قليلاً قليلاً ليصير ضوء الليل، الأزرق الليلي.

قائم بذاته، لا ينتمي إلى أي مكان، الأزرق ليس من هذا العالم، يوحي بفكرة الخلود الهادئ والسامي، الفوق إنساني، حركته بالنسبة لفنان مثل كاندنسكي، هي في آن معاً، حركة ابتعاد عن الإنسان، وحركة تتجه فقط إلى نقطة المركز الخاص به التي تجذبه

مع ذلك نحو اللانهاية، وتوقظ فيه رغبة الطهارة والعطش الماوراني. من هنا نفهم معناه الميتافيزيقي، وطاقة استعماله سريرياً. فالبيئة الزرقاء تهدئ وتسكن، ولكنها بخلاف البيئة الخضراء، لا تقوي، لانها لا تمنح سوى الهروب بعيداً عن الواقع، وهو هروب محبط على المدى الطويل.

عمق الأخضر، حسب كاندنسكي يعطينا الشعور بالراحة الدنيوية، الرضا الذاتي، في حين عمق الأزرق له وقار وجاذبية واحتفالية فوق دنيوية. هذه الجاذبية تستدعي فكرة الموت: جدران مدن الأموات المصرية التي تبرز مشاهد محاكمة الأرواح وهي باللون الأمغر (لون التراب الصلصالي) غالباً ما تغطى بدهان أزرق فاتح.

ويقال أيضاً عن المصريين إنهم كانوا يعتبرون الأزرق لون الحقيقة. فالحقيقة والموت والآلهة تذهب سوية، لذلك يعتبر الأزرق السماوي أيضاً العتبة التي تفصل الإنسان عن الذين يحكمونه، وعن الحياة الثانية وعن مصيره.

يجلس زيس ويهوه على العرش، واضعين الأرجل فوق زرقة السماء والبحار، أي على الجهة الأخرى لهذه القبة السماوية، التي تقول عنها حضارات بلاد ما بين النهرين (أشورية، بابلية، كلدانية)

إنها تكونت من الحجر اللازوردي الثمين، والتي صنعت منها الرمزية المسيحية المعطف الذي يغطي الألوهية ويحجبها. يعبر لازورد الزنابق الذهبية الثلاث، شعار الملكية الفرنسية، عن الجوهر الإلهي الفوق دنيوي للملوك الأكثر تمسكاً بالمسيحية.

مع الأحمر أو الصلصالي، يعلن الأزرق الزواج، أو المنافسة بين السماء والأرض. ففي السهب الآسيوية الشاسعة، تواجه السماء الأرض دون أية حواجز ومنذ الأزل. من زواجهما، يولد كل أبطال السهب: اعتقادات لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم نرى أن جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المنغولية، ولد من زواج الذئب الأزرق والظبية الشقراء. الذئب الأزرق هو أيضاً ايرتوشتيك (Ertoshtik) بطل حركة القيرغيز الذي يلبس درعاً أزرق، ويحمل بيده ترساً أزرق ورمحاً أزرق بالأخرى. أما الأسود الزرقاء التي ترد بكثرة في الأدب التركي المنغولي، فهي كذلك صفات تفطم أب الأتاييك المستقر فوق الجبال والسماء، والذي صار الله، مع اهتداء الترك وتحوليهم إلى الإسلام.

في معركة السماء والأرض، هناك تحالف بين الأزرق والأبيض ضد الأحمر والأخضر، كما تظهر ذلك الأيقونات المسيحية، خاصة في معركة القديس جاورجيوس ضد التنين.

وكذلك كان الحال في بيزنطة، فمجموعات العربات الأربع التي اقتحمت ميدان الخيل كانت بالأحمر والأخضر من جهة والأزرق والأبيض من جهة ثانية. اتخذت هذه الألعاب في روما الشرق معاني دينية عالية وعالمية، تجسدت فيها المنافسة بين الماثل والمفارق، بين الأرض والسماء، بين الحق الإلهي والحق الإنساني: ارتدى الثوار الملكيون اللون الأزرق والثوار المعارضون اللون الأحمر، وهكذا فإن الألوان السياسية ما تزال تتواجه في عالمنا اليوم!

وهناك تفسير طريف ذكره أحدهم لعبارة "الدم الأزرق: كانت الشتيمة في القرون الوسطى خطيئة مميتة، ولم يكن يجرؤ عامة الناس على استخدامها، أما الأسياد فلا يبالون. استمر الأمر على هذا المنوال إلى أن جاء راهب يسوعي نال حظوة الملك وأقنعه بتحريم استعمال لفظة الله في الشتائم وهكذا ظهرت مصطلحات عدة حلت فيها كلمة أزرق محل لفظ الجلالة، الله: mort de dieu: موت الإله، mort bleu مـــــوت أزرق :Sacré bleu) (Pan bleu; Pan dieu) (Sacré dieu ولكن عامة الناس، حفظوا من الأخيرة (sangbleu) وبما أن هذه الألفاظ هي امتياز للنبلاء، كان الأتباع يقولون لكي يميزوا النبيل "هذا دم أزرق" (إشارة إلى الأرستقراطية).

الأزرق والأبيض لونان مريميان، يعبران عن انفصال قيم هذا العالم، ورفع الروح المتحررة نحو الخالق، أي نحو الذهب الذي يأتي

لملاقاة الأبيض البتول، خلال صعوده إلى الأزرق السماوي. وهكذا تكتسب المعاني الجنائزية للأزرق والأبيض قيمة ايجابية نتيجة الإيمان بالحياة الأخرى.

أما الأطفال الذين ننذرهم للأزرق والأبيض، فهم لم يبلغوا بعد، ولم يعرفوا حتى الآن تجربة الجنس، ليسوا ماديين، باختصار ليسوا بالكامل في هذا العالم، ولهذا فإنهم يستجيبون بسهولة لدعوة أزرق العذراء.

تتطابق علامة العذراء في العجلة البروجية مع موسم الحصاد، مع اكتمال النمو الربيعي، الذي سيخلي الساحة للانغماد الخريفي.

علامة العذراء هي علامة جابذة (دافعة نحو المركز) كاللون الأزرق، الذي سيجرد الأرض من معطفها الأخضر، يعريها وييبسها. هذه هي لحظة عيد صعود العذراء – الأم –، الذي يتم تحت سماء بدون حجاب، حيث يصنع الذهب الشمسي من نار محترقة، تلتهم الثمار الناضجة في الأرض.

هذا الأزرق في فكر شعوب الأزتيك، هو الأزرق الفيروزي، لون الشمس التي تسمى أميرة الفيروز، وكان هذا اللون علامة الحرائق والجفاف والمجاعة والموت. ولكنه هو أيضاً الحجر الأخضر – أزرق الفيروزي الذي يزين آلهة عودة الربيع (التجديد).

وكان هذا الحجر يوضع مكان القلب بعد موت أمراء الأزتيك، قبل إحراق جثثهم. ومثل هذا ما كان يحصل في مصر عند موت الفرعون، إذ يوضع جُعْل من الزمرد مكان القلب، وذلك قبل تحنيط الجثة.

أما في بعض مناطق بولونيا فهناك عادة لا تزال مستمرة حتى الآن تقضي بتلوين منازل الفتيات المقبلات على الزواج باللون الأزرق.

في التقاليد اليهودية يسمى "مسكن الخلود" المدينة الزرقاء. وفي البوذية التيبيتية، الأزرق هو لون الفيروكانا، الحكمة السامية، وهو في نفس الوقت لون الفراغ، الذي يجعل من ضخامة السماء الزرقاء أمرا ممكناً. كما يمتلك نور الحكمة الزرقاء للدراماهاتي طاقة باهرة تفتح طريق التحرر.

الأزرق هو لون اليانغ، لون التنين، لون التأثيرات النافعة، الأزرق لون السماء المظلمة، البعيدة، التي تستحضر مسكن الخلود، غير المتجلية واللامتمايزة.

ليس في اللغات السلتية كلمات محددة للدلالة على اللون الأزرق (غلاس Glas) في لغة البريتون، واللغة الايرلندية، واللغة الغالية تعني أزرق أو أخضر، وحتى رمادياً وذلك بحسب النص،

(والواقع أن معظم اللغات تعاني مشكلة في تحديد الأزرق، ففي بعضها هو أخضر، وفي بعضها الآخر أسود، وفي أخرى رمادي، وعند العرب الأزرق هو البياض، وهو الخضرة، وهو الكدرة، وهو اللون الضارب إلى حمرة....)، ولا يبدو أن له قيماً وظيفية في نصوص الايرلندية والغالية الوسيطتين كتلك التي تشبه قيم الأبيض أو الأحمر. ومع ذلك فقد جاء في المرويات أن نساء البريتون كن يظهرن عاريات في بعض الاحتفالات الدينية، وأجسادهن مطلية بالأزرق. وأن أحد الأجداد الميتولوجيين الايرلنديين ويدعى غوئدل غلاس (غودل الأزرق) هو من اخترع اللغة الغالية.

ذكر اللون الأزرق في القرآن الكريم مرة واحدة في سياق الحديث عن منكري الدين الإسلامي ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[1]. وقد ذكر بعض المفسرين أنهم يحشرون وعيونهم زرقاء، أو أن وجوههم زرقاء.... والزرقة غير محددة عند العرب، ولذلك لم ترد هذه اللفظة كثيراً في الاستعمالات القديمة إلا في تعابير متداولة من مثل تسمية الخمر زرقاء، وتسمية الأسنة زرقاء، كما يقال: نابه أزرق: أي ماكر، بارع في المكر والخديعة، والقول: يا نهار أزرق، عوضاً عن يا نهار أسود، وهما بنفس المعنى.

---

[1] سورة طه، الآية 102.

اللغة الشعبية التي هي: بامتياز لغة الأرض، لا تشاهد إذن إلا الخسارة والنقص، والقطع والخصاء والاستئصال، حيث يشاهد بعض التغيير والانطلاقة الجديدة. وهكذا يأخذ الأزرق في أغلب الأحيان معان سلبية: الخوف الغيبي الماوراني خوف أزرق، لا أشاهد فيه إلا الأزرق يعني لا أرى شيئاً. في ألمانيا، إذا قيل عن شخص إنه أزرق، فهذا يعني أنه ثمل بفعل الكحول.

وقد يأتي الأزرق في بعض الاستعمالات الشاذة للدلالة على قمة السلبية، من مثل إلزام المثلي في سجون الأشغال الشاقة في فرنسا باعتمار قبعة نظامية زرقاء دلالة على تخليه عن رجولته. وخلافا لدلالته المريمية يعبر الأزرق هنا عن الخصاء الرمزي، لا عن كونه اللون المنفتح على مالانهاية!



الفصل السادس

الأخضر (صورة الأعماق والمصير)

بين الأزرق والأصفر، يأتي اللون الأخضر محصلة تزاوجهما اللوني، ولكنه يدخل مع الأحمر في لعبة التناوب الرمزي: تزهر الوردة الحمراء بين الأوراق الخضراء.

الأخضر قيمة معتدلة، وسطية بين الساخن والبارد، والعالي والهابط، هو لون مسكن، منعش وإنساني.

في كل ربيع، وبعد أن يكون الإنسان، عاش وحدة الشتاء وتقلباته وعدم ثباته، بتعريته الأرض وتجميدها، تعود الأرض لترتدي

معطفا أخضر، حاملة معه الأمل، خصبة ومرضعة... والأخضر أيضاً لون فاتر: في الربيع تبدأ الثلوج بالذوبان، وتتساقط الأمطار المخصبة.

خضراء هي السلطة النباتية التي تتجلى ثانية إثر هذه المياه المجددة والطيور، والتي إليها تعود الدلالات الرمزية للمعمودية.

الأخضر هو استفاقة المياه البدئية، هو استفاقة الحياة: فيشنو، حامل الكون، يصور على شاكلة سلحفاة خضراء الوجه، فيلكا نيللي، الآلهة الهندية للمادة الفلسفية، المولودة من الحليب، ذات جسد أخضر مثل فينوس فيدياس، ثياب نبتون بخضرة البحر، أو فاتحة الخضرة... باختصار فإن كل ما له علاقة بآلهة البحار، وصولاً إلى الحيوانات التي كانت تضحى من أجلهم، تحمل شرائط بلون خضرة البحار. وهكذا نفهم لماذا أعطى الشعراء للأنهار ضفائر من هذا اللون.

ومهما يكن من أمر فإننا نجد في فنون الرسم القديمة الحوريات اللواتي أخذن أسمائهن من الماء (Nymphi, Lymphas) قد ألبسن الخضرة. الأخضر هو لون الماء، كما الأحمر هو لون النار، ولهذا أحس الإنسان دائماً بفطرته، بالعلاقة القائمة بين هذين اللونين اللذين يتشابهان جوهراً وكينونة.

يرتبط الأخضر بالصواعق، ويعبر عنه في الصين بكلمة من ثلاثة أحرف (تشن) تعني الارتجاج أو الاهتزاز (التجليات التي تحدثها الطبيعة في الربيع)، والرعد هو علاقة بدء صعود اليانغ، ويتطابق أيضاً مع العنصر الخشبي....

الأخضر هو لون الأمل، القوة، طول العمر، هو لون الخلود الذي ترمز إليه كونياً الغصون الصغيرة الخضراء.

يبدأ ارتقاء الحياة من الأحمر ويغيب في الأخضر. اعتبرت بعض الحضارات القديمة اللون الأخضر لوناً ثانوياً ينتج عن الأحمر. في تصور من هذا النوع، يمكن أن نلحظ تكاملية الأجناس: الرجل يخصب المرأة، المرأة تغذي الرجل، الأحمر هو لون مذكر، الأخضر لون مؤنث. في الفكر الصيني هو اليان واليانغ، أحدهما مذكر، محرض، نابذ، وأحمر، والثاني مؤنث، تأملي، استبطاني، جابذ، وأخضر، توازنهما هو التوازن التام للأرض والطبيعة.

إزاء هذه الجدلية الشرقية أعطت المجتمعات القائمة على مبدأ الذكورة، وعلى الدوام، الأفضلية للشرارة الخالقة التي يمنحها الرجل، هي شيسيا الإسبانية، أساس كل شيء أخلاقي، تنتج في المقابل العقدة الأوديبية، أي عبادة الملاذ الأمومي. في خاتمة العدو السريع الجامح،

يرجع الابن، الحبيب، الرجل إلى الأم كما يعود إلى واحة، إلى مرفأ السلام المنعش والمجدد للقوة.

من هذا الواقع يكتسب الأخضر طاقة شفائية قوامها العودة إلى الأصل. في القرون الوسطى كانت ثياب الأطباء خضراء (يعالجون بالنبات)، أما اليوم فاللون هو الأحمر الغامق الذي يعبر بداهة عن الاعتقاد بسر الفنون الطبية، فيما استمر الأخضر لون العطارين والصيادلة الذين يحضرون الأدوية والعقاقير. أما الإعلان الصيدلي فقد عرف كيف يفيد من هذا الاعتقاد القديم بإعطائه قيمة ميثولوجية لكلمات من مثل الكلوروفيل والفيتامين، وعبارة من مثل "السكن في الخضرة" كردة فعل على ثقل الضغط الذي تسببه الحياة المدينية، وكتعبير عن الحاجة الماسة للعودة – ولو مؤقتاً – إلى محيط طبيعي يجعل الريف بديلاً للأم.

يغمر، يهدئ، ينعش يقوي، كما يمثل اللون الأخضر بالنسبة للمسيحيين الأمل والفضيلة الإلهية.

في الإسلام حيث الصحارى الحارقة التي لفّته في البدايات، إرتبط هذا اللون بالربيع والنمو، واستخدم في الشعارات والسنّة النبوية. علم الإسلام أخضر، الأخضر شعار التحية ورمز للغنى المادي والروحي، ورمز الحياة والخصوبة والنبل والشرف (ما يزال

بعض الإسبان يضعون شارات خضراء على قبعاتهم علامة الشرف وقد ورثوها عن العرب).

ذكر الأخضر في القرآن الكريم في سبع آيات، وله دلالة متميزة عن باقي الألوان، ومقدم عليها، إذ هو من الألوان المحببة، إنه لون الجنة، ولون الحياة، ولون القيامة، وقد وُعِد المسلمون المتقون بالجنة حيث السندس والإستبرق الأخضر، والظلال الخضر في أرجاء الجنة وجوانبها....

ويستعمل اللون الأخضر في الإسلام مرتبطاً برموز الموت للأرض، ثم بقيامة الأرض بعد ذلك بواسطة الخضرة. فاخضرار الأرض وخصوبتها وطراوتها بفعل المطر، من دوافع التفكير، وحوافز التبصر في حقيقة الوجود.

وقد استعملت كلمة الخضرة في سورة يوسف للدلالة على الحياة والحركة والطراوة كما في الحديث عن السنابل الخضر... هذا وقد ربط الإسلام بين الأخضر والأحمر في حديثه عن النار الناجمة من الشجر الأخضر، وفي هذا إشارة إلى ما يحمله هذين اللونين من حيوية... كما ذكر اللون الأخضر غير مرة عند الحديث عن المتقين وما أُعِدَّ لهم في الجنة، وجاء في الموروث أن أموراً ثلاثة تُذْهِب الحزن: الماء والخضراء والوجه الحسن!

كما يرمز الأخضر إلى الفكر الديني للخير والإيمان، وهو شائع في قباب المساجد، وأستار الكعبة، وعمائم الأشراف. الكساء الذي أرسله الله لتغطية نبيه وآل بيته (أهل الكساء: علي فاطمة، والحسن والحسين (ع) كان أخضر.

قصص الخضر التي ترتدي أشكالاً متعددة بحسب الميتولوجيات القديمة، أو العقائد الدينية ويأخذ بطلها أسماء متعددة بحسب هذه الحضارات، تتوخى جميعها بلوغ الحقيقة تحت مظاهر تبدو غير معقولة ينتهي به الأمر إلى تلون معطفه باللون الأخضر، وتبرز جميع تفاصيل هذه الميتولوجيات مدى قرابة الأخضر للأحمر، الماء والنار... قيل إنه كان يمشي ذات مرة في الصحراء وبيده سمكة مجففة، وجد بئراً فألقى السمكة في الماء، عادت السمكة إلى الحياة، عرف أنه وصل إلى مصدر الحياة فألقى نفسه في البئر، وهكذا أصبح خالداً، وتلون معطفه باللون الأخضر. أقام في جزيرة. يستحضره البحارة السوريون عند هبوب عاصفة. في الهند، يصورونه جالساً على سمكة، ويشبّه بآلية الأنهار. هو الذي يسود النبات والمياه.

يقول بعض المدونين العرب أنه يجلس على فروة بيضاء، وقد أصبحت خضراء، يقول بعض المفسرين أنها الأرض، أما المتصوفة فتقول إنه ساعد الإنسان على مواجهة الغرق والحريق....

والأخضر في الإسلام هو لون المعرفة. الأولياء في الجنة يلبسون الأخضر. يأخذ الأخضر إذن قيمة أسطورية، جنات خضراء، حب طفولي.

إيرين الخضراء كان اسماً لجزيرة السعداء في العالم السلتي قبل أن يصبح اسمها ايرلندا.

ربط بعض المتصوفين الألمان (ماتليد دي ماغديبورغ وانجليس سيليسيوس) اللون الأخضر باللون الأبيض في وصفهم لعيد الغطاس والفضائل المسيحية، لأن عدالة الأخضر تأتي لتكمل نقاوة الأبيض. في رؤيا يوحنا الأخضر لون الغضب (ونظرت فإذا فرس أخضر والراكب عليه اسمه الموت والجحيم يتبعه....).

السينوبل أو أخضر الشعارات في القرون الوسطى له بعد رعوي، حقول وخضرة، أدب وحب وفرح.... يعتمر رؤساء الأساقفة قبعات بلون السينوبل مع حبال خضراء محبوكة، وكذلك الأساقفة لأنهم رعاة المسيحيين. يرمز هذا اللون إلى المراعي الجيدة، يقود هؤلاء الرعاة الحكماء خرافهم لترعى، إشارة إلى العقيدة السليمة لهؤلاء الأحبار.

كان اللون الأخضر مقدساً عند قدماء المصريين، وكان يمثل الطبيعة الأبدية. لون به أوزيريس أبو الموتى الخالدين. واستخدم في

تلوين الأشجار والقرابين. كان رمزاً لبث الحياة، وكان يرمز إلى الحيوية والشباب.

تدفعنا صفات الأخضر إلى التفكير بأن هذا اللون يخبئ سراً، ويرمز إلى معرفة عميقة مستورة بالأشياء والقدر. كلمة سينوبل اللاتينية المصدر، تشير إلى أرض سينوب الحمراء قبل أن تأخذ معنى الأخضر لسبب غير معروف، وذلك قبل القرن الرابع عشر حيث كانت تعني أحمر وأخضر في آن معاً.

أتت الفضيلة السرية للأخضر نتيجة وجود الأحمر فيه. تسبت آلهات التجدد الخضراء – في جميع الأساطير – في الجحيم حيث الأحمر المظلم. لونها الخارجي أخضر، باطنها أحمر، تمتد إمبراطوريتها على العالمين. أوزيريس الأخضر قُطّع ورمي في النيل وبُعث حياً بسحر ايزيس الأحمر، إنه مسار كبير، لأنه يعرف أسرار الموت والحياة.

بيرسيفون، يظهر فوق الأرض، عند محاكمة الأرواح، في الربيع مع أول نبات الحقول، وفي الخريف يعود إلى الجحيم، الذي يقيم فيه إلى الأبد منذ أن أكل حبة الرمان. حبة الرمان هذه هي قلبه، قطعة صغيرة من النار الباطنية للأرض هي التي تضع الشروط لكل تجديد أو تحويل، هذا الأحمر الباطني لبيرسيفون الأخضر.

وتشبه أسطورة آلهة كزوشيكيتزول الأزتيكية الأسطورة اليونانية، هذه الآلهة التي تختفي في الشتاء في عالم الأموات لتعود وتظهر في الربيع، ونعرفها في المخطوطات من القبّرة ذات الريش الأخضر. وفي الفكر الأزتيكي نرى الأخضر والأحمر على الدوام في الأحجار الكريمة الخضراء التي تزين تنورة آلهة المياه....

هذه التكاملية ما بين الأحمر والأخضر نجدها أيضاً في الموروثات المتصلة بآلهة الحب. أفروديت الموزعة في زبد الموج بين نداءين ذكوريين، نداء زوجها هافيستوس، النار المظلمة، وحبيبها إريس، النار السماوية، تدخل بسوديبون لمصلحتها عندما ضبطها زوجها في حضن حبيبها.

ومما لا شك فيه أن هذه الأسباب جميعها دفعت فناني القرون الوسطى إلى تلوين الصليب باللون الأخضر، إذ رأوا فيه رمزاً للتجدد البشري الذي تحقق بتضحية المسيح.

هذا وقد اكتسب النور الأخضر معنى سرياً خفياً. كان المصريون يخافون الهررة ذات العيون الخضر، ويحكمون بالموت على كل من يقتل حيواناً من هذا النوع.

يعتبر الأخضر في التقاليد الأوروفيه نور الروح التي لقحت المياه البدئية في بداية الزمن التي كان يلفها الظلام.

الأخضر بالنسبة للخيميائيين هو نور الزمرد الذي يخترق أعمق الأسرار، من هنا نفهم سر ازدواجية معنى الشعاع الأخضر، فهو إذا كان قادراً على اختراق كل شيء، فإنه للموت كما هو للحياة!

هناك ينعكس تقويم الرمز، أخضر الإنبات الربيعي يعترض أخضر العفونة، أخضر الانحلال والفساد: نجد أخضر الموت كما نجد أخضر الحياة، لون وجه الإنسان الأخضر، يتعارض مع لون التفاحة الخضراء. الضفادع واليساريع الخضر مسلية وودودة، غير أن الشدق الأخضر المفتوح للتمساح مرعب، كابوس، إنه باب الجحيم المتثائب في الأفق ليمتص النهار والحياة. يمتلك الأخضر قدرة شريرة ليلية مثل كل رمز مؤنث.

اللغة أيضاً تعرفه: ضحك أخضر، هو أخضر من الفزع، أخضر من البارد والقارس، اليد الخضراء: الكريمة الخيرة، شاب عوده أخضر، لم ينضج بعد، إياكم وخضراء الدمن: المرأة الحسناء في منبت السوء، أباد الله خضراءهم: أي سوادهم ومعظمهم....

وقد نجد الأخضر في القرون الوسطى رمزاً للغباوة والجهل وشعار المجانين، وهذه الازدواجية ممكنة في كل رمز ظلامي، فصور الشيطان تبدو في بعض الكاتدرائيات وقد لون جسده بالأخضر، وكذلك عيونه الكبيرة المفتوحة.

وفي عصرنا الحالي، حيث الخيال له المجال الأرحب، وبتأثير الاكتشافات العلمية، تبدو صور الكائنات الشريرة غير الأرضية – أي ما هو ضد كل إنسانيتنا – على شاكلة شياطين أو أقزام خضراء، أو صور ممهورة بدماء خضراء....

وفي نفس الوقت يتم تعظيم الأخضر في عصرنا، لأنه رمز الطبيعة الطبيعية، وقد ازداد هذا الاتجاه مع تزايد تهديد الحضارة الصناعية للطبيعة بالموت. وهكذا أضاف علماء البيئة إلى الأخضر وإلى رمزيته الأولية درجة لونية ثانية: الحنين إلى الماضي، كأن ربيع الأرض سيغيب حتماً وبلا شفقة تحت منظر كابوسي من الباطون والحديد. هذا وقد عرض الفنان البيئي ايربيري، بعد أن لون بالأخضر أقنية البندقية والينابيع الباريسية لوحاته الخضراء التي تمثل أنواعاً من الحيوانات مهددة بالانقراض في أيامنا هذه. وهنا أيضاً تنعكس الرمزية الغامضة: فالطبيعة الخضراء ليست دائماً الصورة المثلى للعذوبة المهدئة، فغابات الأمازون، رئة العالم، والتي يدافع عنها ايربيري بشراسة، كذلك جميع أنصار البيئة والحركات المدافعة عنها، كانت تعتبر إلى زمن قريب جداً الجحيم الأخضر!

الخيميائيون بدورهم، ذهبوا في عملية تحليل الأضداد إلى أبعد ما تصله مخيلتنا. لقد حددوا نارهم السرية، الروح الحية والمضيئة كأنها الكريستال الشفاف الأخضر، القابل للانصهار مثل الشمع، الذي

الأخضر ترفده بقوة منشطة ومظهر مضيء. بعض الأزرق يجعله وقوراً رصيناً، يحمل فكراً وحكمة، فاتح أو غامق، يحتفظ الأخضر بطبعه الأصلي اللامبالي والهادئ: الفاتح، تخطفه اللامبالاة، نشعر بالهدوء أكثر مع الأخضر الغامق.

وخلاصة القول، إن الإناء بصرف النظر عما يحويه، هو بحد ذاته حيادي، وربما كان هذا يرجع إلى أن وظيفته صيانة ما فيه، إنه كالبطن الذي ينمو الجنين – سر الحياة – في داخله.... وهذا ينطبق على جميع التقاليد السرية التي تتناول المبدأ الحيوي، سر الأسرار، الدم الكثيف المخبوء في إناء أخضر....

لغة الرموز، هي لغة حية وسرية، لم تظهر لتقفل الأبواب وإنما لتفتحها، لتدعو إلى التأمل التفكر والتبصر. إنها تمتزج بمودة لأبدية حياة العواطف والأفكار، وهذا ما يميزها عن كل عمل لعلم النفس التطبيقي الذي يستجيب لمحدودية غاية في الدقة.

غالبا ما يظهر ما تعبر عنه هذه اللغة العميقة بالاستدلال، بابتكار حوارات غير متوقعة ما بين الأجيال والعقائد والحضارات. المطببون الأزتيك، في محاولتهم شفاء أوجاع الصدر، يبتهلون قائلين: أنا الكاهن، أنا السيد، أبحث عن الألم الأخضر، أبحث عن الألم الأشقر. فان غوغ الفنان الهولندي العالمي، كتب بعد قرون: أبحث للتعبير عن الآلام الإنسانية المرعبة في اللونين الأخضر والأحمر.

القاسم المشترك الوحيد بين القديس يوحنا الإنجيلي والكاهن الأزتيكي، وفان غوغ هو الإلهام.

والخلاصة الثابتة أن الأخضر يحافظ على ميزة غريبة ومعقدة ناجمة عن ازدواجية قطبيته: أخضر البرعم، وأخضر العفونة، الحياة والموت.



الفصل السابع

اللون الأصفر (لون الأبدية)

قوي، عنيف، حاد إلى درجة تمكنه أن يكون ثاقباً، أو رحباً وباهراً كتدفق معدن في حالة الذوبان. الأصفر، هو الأكثر دفئاً، الأكثر بوحاً، والأكثر تأججاً واتقاداً من بين الألوان، يصعب إخماده أو تخفيفه، يتجاوز دائماً الطوق الذي يتوخى احتواءه، تخترق أشعة الشمس زرقة السماء، مظهرة قدرة إله الحياة الآخرة.

في مجمع الأرباب الأزتيكي، يلون المحارب المنتصر، إله شمس الظهيرة، باللونين الأصفر والأزرق، ويتعارض الثنائي ذهب

– لازوردي مع الثنائي أحمر – أخضر، مثلما يتعارض ما يصدر عن الأعلى مع ما يصدر عن الأسفل. أما ميدان المواجهة فهو جلد الأرض، أي جلدنا الذي يصبح هو الآخر أصفر مع اقتراب الأجل.

في الثنائي أصفر – أزرق، الأصفر هو لون الذكر، النور والحياة، هذا الأصفر غير قابل للتعتيم. لاحظ كاندنسكي هذا، فكتب يقول: يميل الأصفر إلى أن يكون مضيئاً بحيث لا يستطيع أن يكون داكناً.

يمكن القول إن هناك قرابة مادية عميقة بين الأصفر والأبيض، فهو وسيلة نقل لفكر الشباب، للقوة، للأبدية الإلهية.

هو لون الآلهة زورو أستر، كوكب الذهب البراق، المتلألئ، الكريم، الكوكب الحي... فيشنو يلبس الثياب الصفراء، البيضة الكونية للبراهما تلمع كالذهب....

يصبح نور الذهب أحياناً طريقاً للتواصل بين الإنسان والآلهة: في الهند، كانت سكين من الذهب تستعمل في الأضحية الكبرى للحصان، لأن الذهب هو النور، وعن طريق هذا النور يصل المضحى به إلى مملكة الآلهة.

في الكوزمولوجيا المكسيكية، يعتبر اللون الأصفر الذهبي لون الجلد الجديد للأرض، لون تكتسبه في بادية موسم الأمطار قبل أن

تخضر من جديد. هو مرتبط إذن بالسر الخفي للتجدد. ولهذا السبب فإن كزي بيه توتيك إله الأمطار الربيعية هو نفسه إله الصاغة.

في أعياد الربيع، يلبس كهنة هذا الإله جلوداً ملونة بالأصفر، هي جلود الضحايا التي قدمت، وذلك لاستمالة هذا الإله. وكان الأصفر الذهبي صفة ميترا في بلاد الفرس، وصفة ابولون في اليونان.

ذو جوهر إلهي، صار الأصفر الذهبي على الأرض يمثل صفة القدرة عند الأمراء والملوك والأباطرة، ورمزاً للأصل الإلهي لسلطتهم، وهكذا بات الأصفر الذهبي للقدرة الإلهية يغطي خضرة الغار رمز الأمل الإنساني. وحل محل أغصان المسيح الصغيرة الخضراء أثناء إقامته على الأرض، هالة ذهبية عندما عاد وجلس على مقربة من الأب. في إسبانيا وفي أحد الشعانين، يرفع المؤمنون سعف النخيل الصفراء، في فناء الكنيسة وساحتها.

الأصفر هو لون الأبدية، كما الذهب هو معدنها. كلاهما في أصل الشعائر المسيحية. الصليب مذهّب على الحلة التي يلبسها الكاهن أثناء إقامة القداس، صفة القربان مذهّبة، يتحد أصفر الحياة الخالدة، أصفر الإيمان، مع الطهر الأصلي للأبيض في علم الفاتيكان. وفي هذا الجو العابق بالذهب والأصفر من كل ناحية ينقل الكهنة الكاثوليك الشخص المتوفى إلى الحياة الأبدية!

هذا هو الحال في العديد من الحضارات. ميترا غير بعيدة عن الأصفر، للكلاب الجهنمية عيون صفراء تمكنها أن تخترق بسهولة أفضل أسرار الظلام، الآذان الملونة بالأصفر والأبيض. في غرف دفن الموتى المصرية، غالباً ما يجتمع الأصفر مع اللون الأزرق، وذلك للاطمئنان إلى عودة الروح، لأن الذهب الذي يمثلها هو جسد الشمس والآلهة.

هذا الحضور للأصفر في العالم الظلامي، تحت ستار الأبدية يقودنا إلى المظهر الرمزي الثاني لهذا اللون الأرضي.

الأصفر هو لون الأرض الخصبة، وهذا ما حدا بالصين القديمة أن تنصح الثنائي القادم على الزواج باختيار ثياب وأغطية ومخدات شفافة، وجميعها من الحرير الأصفر، وذلك لضمان الإنجاب....

ومع ذلك فإن اللون الأصفر للسنابل الصيفية الناضجة يعلن قدوم لون الخريف حيث تتعرى الأرض فاقدة معطفها الأخضر.

الأصفر إذن يبشر بالزوال، بالشيخوخة، بدنو الموت. ذاهباً إلى مداه الأقصى، يصبح الأصفر بديلاً عن الأسود.

هو لون الغرب عند هنود البابلو، والشمال أو الجنوب بالنسبة لشعوب الأزتيك وزينيس، وذلك وفق ارتباط كل منهما بالعالم السفلي....

في بعض العقائد الصينية يتماثل الأصفر مع مركز الأصل، وعنصر الأرض في آن معاً. الأسود أو الأصفر هو أيضاً اتجاه الشمال أو الهاوية التحت أرضية، حيث الينابيع الصفراء التي تقود إلى مملكة الأموات، ذلك أن الأرواح الهابطة إلى الينابيع الصفراء أو اليانغ، حيث يلجأ الشتاء، تصبو إلى التجدد الدوري، حيث يكون المدار الشتوي هو الأصل.

وإذا كان الشمال، والينابيع الصفراء هي خلاصة الين، فهي أيضاً أصل تجدد اليانغ. فضلاً عن ذلك يرتبط الأصفر بالأسود كنقيض له وكمكمل له في آن. ينفصل الأصفر عن الأسود فور عملية تمايز الفراغ. اللامتمايز هو أصفر وأسود، ين ويانغ، مربع ومستدير. يرى يي كينغ أن الأصفر والأسود هما لون دم التنين خالق العالم... في الرمزية الصينية يصدر الأصفر عن الأسود، كما صدرت الأرض عن الحياة البدئية. إذا كان الأصفر في الصين لون الإمبراطور، فذلك لأنه يقيم في مركز الكون كما تقيم الشمس في مركز السماء.

عندما يقف الأصفر في نصف الطريق بين الأرفع والأسفل يفسد الفضائل... يجسد الكبريت الشيطاني (أصفر اللون) التكبر والزهو والاعتداد، والبعد عن الله.

يرتبط الأصفر بالخيانة عند تحطم الرباط الزوجي المقدس، كما يرتبط بصورة الرباط المقدس للحب الإلهي المحطم من قبل الشيطان، مع فارق دقيق قلب فيه الرمز، إذ أعطي نعت الأصفر للمخدوع في حين يرجع أصلاً للخادع كما هو معروف في بعض العادات والتقاليد: في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تلون أبواب الخونة بالأصفر للفت انتباه المارة. بعد مجمع لاتران الذي عقد سنة 1215، فرض على اليهود وضع شريحة مستديرة صفراء على ثيابهم، من العادات التي عرفت حيناً من الزمن دهن بيوت المفلسين باللون الأصفر، لطالما نعت العامل الذي لا يتضامن مع زملائه بالأصفر، قام النازيون بلصق نجمة صفراء على اليهود، غير أن هؤلاء قاموا بقلب معنى الرمز، فرأوا في هذه النجمة النور الإلهي والمجد ليهوه، لا علامة للعار!!

وقد رمز اللون الأصفر عند بعضهم إلى الكراهية، فهو عند كيتس "الضغينة الصفراء الميتة"، وعند تشارلز سوينبرن "الغيرة الصفراء". ومن المأثورات العربية نجد الوجه الأصفر الذي يرشح سماً، والضحكة الصفراء... والصحافة الصفراء (أخبار مسمومة ومدسوسة ومثيرة للفضائح) والعين الصفراء: العين الحقودة الحاسدة...

والتقويم السلبي للأصفر ثابت أيضاً في مسرح بكين، حيث يطلي الممثلون وجوههم بالمساحيق الصفراء، إشارة إلى القساوة والتهكم

والوقاحة والسخرية والاستخفاف، فيما يرمزون بالأحمر إلى الأمانة والاستقامة والصدق والشرف. ومع ذلك، وفي نفس هذا المسرح التقليدي نجد ثياب الأمراء والأباطرة صفراء اللون، دلالة على منزلتهم الاجتماعية، دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بالناحية النفسية!

ولا شيء أكثر من هذا الاستعمال للون الأصفر في المسرح الصيني يعكس النظرة الجوهرية لهذا اللون، بحيث يبدو الأكثر ألوهية من بين جميع الألوان، وفي الوقت نفسه أكثرها أرضية حسب تعبير كاندنسكي.

نجد هذه الازدواجية أيضاً في الميتولوجيا اليونانية، فالتفاحات الذهبية التي أهديت إلى هيرا وزيس كهدية عرس هو رمز الحب والألفة والوئام، زواج نتج عنه كل شيء! هذه التفاحات تختلف عن تفاحة الخلاف التي أعطاها باريس إلى فينوس مثيراً بذلك غضب جونون وميترا. كما علينا أن لا ننسى أن تفاحة ذهبية كانت أيضاً أصل حرب طروادة، وكانت رمزاً للتكبر والغيرة...

ودائماً وفي الميتولوجيا اليونانية، يتقارب وجها الرمز في أسطورة ادالانت، ديان اليونانية، العذراء اليونانية، التي كانت تصارع هيبو مينيس لتقتله كما فعلت مع جميع الطامعين، لكنها عجزت عن مقاومة الرغبة التي أشعلتها في داخلها التفاحات الذهبية

التي ألقى بها الشاب على الأرض، إنهزمت، وخانت أمانيها، ولكنها عرفت الحب!

وتميز العديد من الحضارات بين رمزية اللون في حالتي الكمود أو اللمعان، ففي الموروث العربي الإسلامي، قد يمثل الأصفر الذهبي العقل والحكمة والنصيحة الجيدة، أما الأصفر الباهت فدليل خيانة وخيبة أمل.

وقد ورد الأصفر في آيات قرآنية للدلالة على المرض والموت والفناء، وكما استخدم في وصف جهنم، استخدم أيضاً للدلالة على البهجة والسرور ﴿... إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[1] فاختيار اللون هنا يزيد البقرة جمالاً ويبهج الناظر إليها... وقيل أن الإمام علياً (ﷺ) كان يفضل اللون الأصفر ويعتبره مبعداً للهم....

كما قال أبو نواس في وصف الخمرة مازجاً الصفرة بالنور، ونائياً برمزية اللون من الأحزان:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها	لو مسّها حجر مسّته سرّاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها	لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها	حتى تولد أنوار وأضواء!!

---

[1] سورة البقرة، الآية 69.

الفصل الثامن

اللون الرمادي (لون الضباب)

الرمادي مزيج تتساوى فيه نسبة اللونين الأبيض والأسود. يرمز هذا اللون في المسيحية إلى يوم البعث (قيامة الموتى)، وكذلك وفق ف. بورتال. ويضيف هذا الكاتب، أن الفنانين في القرون الوسطى كانوا يصورون المسيح وهو يرتدي معطفاً رمادياً حين ترؤسه المحاسبة يوم الدينونة.

لون الرماد والضباب هو. كان العبريون يغمرون أنفسهم بالرماد تعبيراً عن الهم العميق، وفي الغرب الرمادي هو لون النصف حداد!

تولّد الرمادية في بعض الأوقات المعتمة شعوراً بالحزن والانزعاج والضجر، ويسمى هذا الوقت بالوقت الرمادي.

يعيش حديث الولادة في الرمادي، هذا الرمادي هو نفسه الذي نشاهده ونحن مغمضي الأعين حتّى في الظلمة التامة. يدرك الطفل عالم الألوان خلال السنوات الثلاث الأولى من حياته، معتاد على الرمادي، يتماهى معه... يصبح الرمادي خاصته، محور عالم الألوان وحدود مرجعيته، ويفهم أن كل ما يشاهده هو لون....

الإنسان رمادي في وسط العالم اللوني كما الكرة السماوية داخل الكرة اللونية. الإنسان نتيجة لجنسين متعارضين، وإذا كان في الوسط الرمادي بين الألوان المتعارضة التي تؤلف كرة لونية منسجمة، فإن كل زوجين للونين ضدين في توازن كامل.

لقد عمل الإنسان في كل العصور للحصول على الألوان الكاملة التي يتخيلها أو يشاهدها في أحلامه. لون محيطه، لون جسده، هو بحاجة للون وللون المضاد، اللون الرمادي الوسط بين الألوان المتضادة، بين الأصفر والأزرق، والأحمر والأخضر، الأبيض والأسود، المعابر من واحدها إلى الآخر، لعدد لا يحصى من الثنائيات المتعارضة والتي تمتلك دائماً في الوسط لوناً رمادياً معتدلاً.

يتغير موقف الإنسان في الوسط الرمادي حسب الشروط التي تؤثر في خلقه وطريقة عيشه....

التوجه في عالم الألوان ممكن بفضل درجاته الأربع المطلقة: فالدرجات الأربع المطلقة هي: الأصفر المطلق، الأخضر المطلق، الأزرق المطلق، والأحمر المطلق.

درجات هذه الألوان (الأصفر، الأخضر، الأزرق، الأحمر) غير مرتبطة بمدى كثافة النور، وكذلك بعكس جميع الألوان الأخرى، التي تتغير درجاتها بحسب درجة الإضاءة.

تتقابل هذه الدرجات الأربع المطلقة مع الجهات الأصلية الأربع. يخص الإنسان كل جهة بلون، واختياره هذا مرتبط بشروط حياته.

تسيطر كل درجة لونية مطلقة على عدد لا يحصى من الألوان المماثلة (ذات القرابة). قد تكون هذه الألوان المماثلة أكثر حرارة من الدرجة اللونية المطلقة، أو أكثر برودة. جميع الألوان التي تميل نحو الأحمر والأصفر، ونحو ما وسط بين هذين اللونين، أي البرتقالي، تنزع نحو الحار. وجميع الألوان التي تميل نحو الأزرق والأخضر، أو ما هو وسط بينهما أي المزرورق، تنزع نحو البرودة.

يشعر الإنسان بأن البرتقالي هو القطب الذي يجذب الميول الحارة، فيما المزرورق هو قطب البارد.

يفضل الكثير من الشبان اللون البنفسجي، الذي لا يبالي بالحار أو بالبارد، ويتماهون مع هذه اللامبالاة اللونية. أما اللون الأصفر المخضر، وهو اللون المضاد للبنفسجي، فهو يجذب الكثير من الشابات اللواتي يتماهين معه....

يجد الإنسان في المنطقة الدائرية التي تحوي اثنتا عشرة درجة أساسية، أربع درجات مطلقة، ألواناً وسطية، انعكاس شديد الحساسية لفلك البروج، يتجه كل واحد لاإرادياً باتجاه المنطقة اللونية التي ينتمي إليها لونه المفضل. عامة الناس، شعوب بأكملها، يمكن أن تلتفت بسهولة لتجد نفسها في حالة مشابهة للمركز الرمادي. وهكذا يصبح اللون ذا مغزى مهم للإنسان، مهم للشعوب، مهم للإنسانية بطريقة غير منطقية، وغير متوقعة!

الفصل التاسع

اللون البنفسجي (لون الاعتدال والسر)

البنفسجي هو لون الاعتدال، ينتج عن كميات متساوية من اللونين الأحمر والأزرق.

يعتبر هذا اللون رمزاً للوضوح، ونفاذ البصيرة والعمل العاقل والتوازن بين الأرض والسماء، الحواس والروح، الشغف والذكاء، الحب والحكمة.

يتمثل اللغز الرابع عشر من التاروت، الذي يسمى الاعتدال، بملاك يحمل بين يديه وعاءين، أحدهما أزرق والثاني أحمر، يتبادلان

سائلاً لا لون له، ماء الحياة. يظهر البنفسجي غير المرئي في هذا العرض نتيجة هذا التبادل الأبدي بين الأحمر الظلامي للقوة المحرضة والأزرق السماوي.

وقد فسر فان ريجنبرك هذه الترسيمة بالقول: "إنها تعتبر عموماً رمزاً للخيمياء، كما يبدو لي أنها تشير إلى عملية النقل الروحي (الشبيهة بنقل سائل من إناء إلى آخر أو ما يعرف بالاصفاق....) التأثير الذي يمارسه إنسان على آخر، بالإشارة بالاضطهاد، بالتأثر المغنطيسي، بالسيطرة المسمرية (التنويم المغنطيسي على طريقة مسمر) وأخيراً السحر: فعقيدة تقمص الأرواح أو التناسخ، تجد تعبيراً عنها في هذه الترسيمة بطريقة واضحة. وهنا يكفي أن نتذكر أنه في اليونان القديمة، كانت عملية سكب الماء من إناء في إناء آخر تعتبر مرادفة للتقمص.

كما تجدر الإشارة إلى أن الخيمياء بصورة عامة، هي العقيدة المغلقة والغامضة، والتي ترتكز على رسم خيالي للتبادل الأبدي بين السماء والأرض، صعوداً وهبوطاً، ارتقاءً ونزولاً.... إنها دورة التجدد المنتظمة، موت وتسام... ولادة وتجسد. فاللغز الرابع عشر من التاروت، يتمثل في اللعبة الأبدية لطاقات المادة بأزلية الاستمرارية.

ولمزيد من الإيضاح نقول: إن البنفسجي، يقع في مواجهة الأخضر على أفق الدائرة الحيوية. لا يعني هذا اللون العبور الربيعي من الموت إلى الحياة، أي الارتقاء، وإنما يعني العبور الخريفي من الحياة إلى الموت أي الانغماد، وهكذا وبطريقة ما، يصبح إذن الوجه الآخر للأخضر، ويرتبط مثله برمزية الشدق. غير أن البنفسجي هو الفم الذي يبتلع ويطفئ النور، بينما الأخضر، هو الذي يلفظ، ويعيد إضاءة النور. ولهذا نفهم لماذا اعتبر البنفسجي لون السر، ووراءه يكتمل السر غير المرئي للتجسيد، أو على الأقل للتحول.

إذا عرفنا هذا نفهم السبب الذي من أجله يظهر المسيح في الصروح والنصب التذكارية التي أقيمت في القرون الوسطى وهو يرتدي ثوباً بنفسجياً في أسبوع الآلام. وهذا يعني أنه في اللحظة التي اكتملت فيها تضحيته، غدا إنساناً بالمعنى الدقيق للكلمة، ابن التراب، الذي سيفدى مع الروح القدس السماوية الخالدة التي سيرجع إليها.

نفس هذه الرمزية نجدها في لباس جوقة الترتيل في الكنائس البنفسجي اللون يوم الجمعة العظيمة.

العديد من الأناجيل، وكتب المزامير، وكتب فروض الصلاة، السابقة لعصر النهضة، (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر)، ولنفس السبب، كتبت بخطوط من ذهب على قضيم بنفسجي (ورق

دقيق من جلد العجل يستخدم للكتابة) (الرؤيا ماثلة بالذهب، والأم المسيح مصورة بالبنفسجي).

وبفعل هذه الرمزية الجنائزية، أصبح اللون البنفسجي لوناً للحداد أو النصف حداد في المجتمعات الغربية: وهذا يستحضر أيضاً، وبدقة أكبر فكرة الموت باعتباره معبراً لا على أنه حالة نهائية. نجد صدى لهذه الفكر في شعر رامبو:

Q, Oméga, Rayon Violet de tes yeux

أيتها النهاية، الشعاع البنفسجي لعينيك

لقد عرف الشاعر أن يكشف في بضع كلمات ذلك التساؤل، وسويداء تلك النظرة إزاء الذي سيفنى ولم يتكون بعد!

وقد ذكر ف. بورتال، أن معطف ابولون كان أزرق او بنفسجيا، وهنا لا بد من التفكير بمدى اقتراب صورة ابولون هذه من صورة المسيح في بعض الإبداعات الكنسية لهذه الناحية بالذات.

ولكن البنفسجي أيضاً هو لون الطاعة والخضوع: وهذا لا يتعارض مع ربطه بالآم المسيح. وقد أشار ويليس بودج أن عادة تعليق حجر بنفسجي في عنق الأطفال، ليس فقط لحمايتهم من الأمراض، وإنما أيضاً ليكونوا ودعاء ومطيعين.

البنفسجي هو أيضاً لون الهدوء والسكينة الذي يلطف فيه الأحمر الحاد. في إطار هذا المفهوم علينا أن نفهم أيضاً ماهية الثوب البنفسجي للكاهن. فخلافاً للمتصوف هو ملتزم ومتكفل بالسهر على رعيته، من هنا يجب عليه أن يعدّل من مدة انفعالاته: لون ثوبه رمز لهذا المفهوم، وربما من هنا صار هذا اللون رمزاً للاعتدال.

في الشرق الأقصى، وليس دون انسيابية ملحوظة، يفسر هذا المرور من الأحمر إلى البنفسجي بدلالة مغايرة تماماً، إنه مرور شهواني محض، من الإيجاب إلى السلب، من اليانغ إلى الين. فالمزاوجة الطقوسية بين ممارسي اليوغا في الطقوس التنترية تحدث في غرفة مضاءة بالنور البنفسجي، لأن النور البنفسجي ينشط الغدد الجنسية عند المرأة، في حين ينشط الأحمر هذه الغدد عند الرجل. هذا وتجدر الإشارة إلى أن البنفسجي هو أول صباغ عضوي تركيبي، اكتشفه السير وليم هنري بيركن سنة 1856 فيما كان يسعى لصنع دواء للملاريا!!

الفصل العاشر

الألوان
الأشقر، الأسمر، الزعفران، الفيروزي، الوردي، البرتقالي

1 - اللون الأشقر (الأصهب) لون الشبق

يقع اللون الأشقر بين الأحمر والصلصالي: الأحمر الترابي، وهو لون يستحضر النار ويذكرنا باللهب. من هنا جاءت العبارة: أشقر ملتهب. ولكنه عوض أن يقدم النار الصافية للحب السماوي (الأحمر) فهو يشير إلى النار الملوثة، المحترقة تحت الأرض، نار جهنم، إنه لون ظلامي.

عند قدماء المصريين، كان إله الشهوات المهدمة ست تيفون، يلون بالأشقر. ويقول بلو تارك، إن في بعض أعياد هذا الإله،

يضطرم الحماس، ويشتد الهيجان بحيث يصار إلى رمي الرجال الشقر في الوحل. وقد شاء العرف أن يكون لون شعر يوضاس أشقر.

وخلاصة القول إن اللون الأشقر يستحضر النار الجهنمية الملتهمة لكل شيء، الهذيان، الشبق، شغف الاشتهاء، لهيب القسم الأسفل للإنسان أمور تستهلك الكائن البشري روحياً ومادياً.

2 – اللون الأسمر (لون التربة)

يقع اللون الأسمر بين الأشقر والأسود، ولكنه ينجذب إلى اللون الأسود. ينطلق من الأحمر الترابي إلى الترابي الغامق، إنه أولاً وقبل كل شيء لون الحقول، الصلصال، والتربة الأرضية....

يذكرنا الأسمر بالأوراق المتساقطة، بالحزن، وبالخريف. اللون الأسمر أقرب ما يكون إلى زواج غير متكافئ بين الألوان الصافية.

في الكنيسة الكاثوليكية – كما عند الرومان – اللون الأسمر رمز للخضوع والفقر، وهذا ما يتمثل بإيثار بعض رجال الدين للمسوح.

في ايرلندا يحل اللون الأسمر محل الأسود الذي يمثل الرمزية العسكرية والجهنمية.

وللأسمر أيضاً دلالات أخرى متعددة، قد يستخدم من قبل المتمايزين الأقرب إلى الانحراف والشذوذ: إيثار الساديين لهذا اللون، القمصان الهتلرية السمراء.... وهذا ما قد يدعم نظرية فرويد حول العقدة الشرجية التي يستحضرها هذا اللون!

3 – لون الزعفران (الجادي) لون الحكمة

الزعفران لون براق، لون الذهب، مرتبط بالحكمة، لذلك هو لون لباس الرهبان البوذيين.

4 – اللون الفيروزي (لون الإشعاع)

للون الفيروزي، في بعض الثقافات الأمريكية القديمة، علاقة بالنار والشمس. وهكذا فإن الإله المحارب – الشمس – عندما يستيقظ، يطرد القمر والنجوم من السماء بسلاح حبة الفيروز المتماهية مع النار والإشعاعات. أما شعوب الأزتيك فتسمي إله النار، معلم الفيروز.

أما لدى البابلو فهناك غرفة طقوسية، هي الأكثر سرية، مخصصة لكاهن المطر الأكبر (معلم أمطار الشمال)، تحتوي على مذبح مؤلف من عمودين صغيرين من الكريستال والفيروز مع حجر على شكل قلب، يعتبر قلب العالم.

أما إله الحرب عند شعوب الأزتيك، إله الشمس الأعلى، فهو أمير الفيروز الذي يمثل شمس السمت.

5 – اللون الوردي (لون الحب)

ذكر بعضهم أن قبر المسيح في القرن السابع الميلادي كان ملونا بلون ممزوج من الأبيض والأحمر. لهذين العنصرين اللذين يكوّنان اللون الوردي قيم رمزية تقليدية تتأرجح ما بين المقدس والمدنس، وذات فروقات ترتبط بمعطاءات الورود الحمراء والورود البيضاء، ومفروقات ما بين مفاهيم الشهوة والطهارة، وبين مفاهيم الحب السامي والحكمة الإلهية.

إختار الشاعر جون كيتس اللون الوردي لونا للحب، وكذلك فعلت الشاعرة ميريديت عندما غنت "ذكريات الحب الوردية".

أظهرت دراسة علمية حول اللون الوردي تناولت انعكاساته على الإنسان، أن بعض درجات هذا اللون لها نفس مفعول المهدئات، كما أنه يساعد على استرخاء العضلات.... وقال عدد من الباحثين، إنه ثبت علميا أن جزءا من المخ يتفاعل مع اللون الوردي بحيث ينتج عن هذا التفاعل الحؤول دون أن يفرز الجسم هرمون الأدرينالين، مما يساعد على تهدئة عمل عضلات القلب، وتهدئة الأعصاب، وهذا ما دفع بعض الاختصاصيين إلى النصح بارتداء الثياب الوردية اللون، لاسيما أثناء المناقشات الحامية!

ويصف بعض علماء النفس أثر اللون الوردي على نفسية الإنسان، بأنه لون ملطف، يغمرنا بشيء من الحب والحماية، ويخفف الشعور بالوحدة والحساسية، وهو لون الحب غير الأناني. واللون الوردي أو الزهري، هو مزيج من الأحمر والأبيض. ذكر الدكتور مورثون دوكر في كتابه "طاقة الألوان" بأنه أحد الألوان التي استخدمها المصريون القدامى حين شيدوا لمرضاهم معابد غنية بالألوان والإضاءة، لمعالجتهم من الأمراض المختلفة.وفي أيامنا هذه، يستخدم اللون الوردي في السجون ومراكز الأبحاث، ومراكز علاج الإدمان، باعتباره ميدئا للعدوانيين.

6 – اللون البرتقالي (لون التوازن بين الروح والشبق)

في منتصف الطريق بين اللونين الأصفر والأحمر، يأتي اللون البرتقالي، هذا اللون الأكثر إشعاعاً من جميع الألوان.

بين الذهب السماوي والأحمر الظلامي، يرمز هذا اللون بادئ ذي بدء إلى نقطة التوازن بين الروح والشبق. لكن هذا التوازن قد يختل، ويسير في هذا الاتجاه أو ذاك، فيغدو البرتقالي عندها إعلاناً للحب الإلهي، أو رمزاً للشبق!

في الحالة الأولى، هو الثوب المزعفر للكهنة البوذيين، وللصليب المخملي البرتقالي، ولفرسان الروح القدس....

ويعتبر بورتال نقاب العروس شعاراً لدوام الزواج واستمراره، وهو يطابق معنى المدنس وراية المقدس.

الحجاب الذي ألبسه فيرجيل لفيلين مزعفر. ربات الفنون في الميتولوجيا اليونانية (الآلهات التسع الشقيقات اللواتي يرغبن الغناء والشعر والفنون....) اللواتي يتجلين حسب بعض الروايات كانهن بنات السماء والأرض، كما أن أهميتهن في العبادات الأبولونية معروفة، كان لباسهن بلون الزعفران.

حجر الصفير، الحجر البرتقالي المحمر، هو رمز للأمانة والإخلاص. كان شعار واحدة من الإثنتي عشر قبيلة يهودية، كما كان على صدرة حبر الأحبار كبير كهنة أورشليم، نجده على تاج ملوك انكلترا، وهو يرمز إلى اعتدال الملك ورصانته.

يختفي لون هذا الحجر عند مروره فوق النار، وهذا يدل، بحسب بورتال – على ما فيه من دلائل الإيمان الثابتة التي تتغلب على الشهوات وتطفئها.

لكن توازن الروح والشهوة مسألة غاية في الصعوبة، إذ قد يكون البرتقالي لون الخيانة والشبق. جرى البحث عن هذا التوازن، بالاستناد إلى عادات ترجع إلى عبادة الأرض الأم، في طقوس العربدة والمجون، التي كان يفترض أن تقود إلى التجلي، والتسامي المساري. ويقال إن ديونيسوس كان يلبس ثياباً برتقالية اللون!!

بعض المصادر والمراجع

- تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي: تأليف اشيموس بطريرك القدس، ترجمة الخوري يوحنا حزبون 1984- عمان.
- الفن الإغريقي- الدكتور ثروت عكاشة – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982- القاهرة.
- منتديات المتداول العربي.
- ملتقى حضرموت للحوار العربي.
- منتديات بوابة العرب.
- منتديات السعودية تحت المجهر.
- منتديات البرمجة اللغوية العصبية.
- موقع الباحثون.
- د. ناصر الجهني، أسماء الألوان. موسوعة أسماء الألوان في اللجهات المحلية.
- المجمع العربي الدولي لأصدقاء اللغة العربية.

الألوان

لا شيء يؤثر في حياتنا، دون أن نلاحظ ذلك في أغلب الأحيان، مثل الألوان. لأفراحنا وأتراحنا ألوان معينة، لغرف نومنا وقاعات استقبالنا ألوان معينة، لأعلامنا الوطنية ألوان معينة، لثيابنا، بل ولأحذيتنا ألوان معينة، اللون يلاحقنا في كل صغيرة وكبيرة وفي كل جانب من جوانب حياتنا. يطمح هذا الكتاب إلى تقديم تصور موجز وشامل، مبني على استقراء يتناول مختلف الحضارات، لرمزية الألوان ودلالاتها منذ القديم وحتى أيامنا هذه.

